

أسباب النبوغ عند السلف

محاضرة قيمة



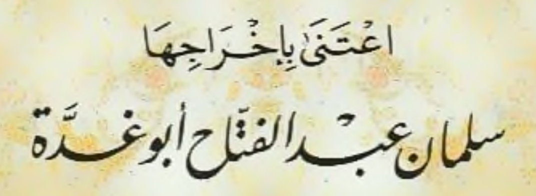


لفضيلة الشيخ العلامة المربي

عبد الفتاح أبو غدة

وُلد سنة ١٣٣٦ وتوفي سنة ١٤١٧

رحمه الله تعالى



اعتنى بإخراجها

سلمان عبد الفتاح أبو غدة

دار البشائر الإسلامية

مكتب المطبوعات الإسلامية


أسباب النبوغ
عند السلف

الطبعة الأولى
١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م

دار البشائر الإسلامية

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى
سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٥٩٥٥
هاتف: ٠٠٩٦١١/٧٠٢٨٥٧ فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣
email: info@dar-albashaer.com
website: www. dar-albashaer.com

ISBN 978-614-437-795-6
9 786144 377956

أسباب النبوغ عند السلف

محاضرة قيمة

لفضيلة الشيخ العلامة المربي

عبد الفتّاح أبو غدّة

وُلد سنة ١٣٣٦ وتوفي سنة ١٤١٧

رحمه الله تعالى

اعتنى بإخراجها

سلمان عبد الفتّاح أبو غدّة

دار البشائر الإسلامية

مكتب المطبوعات الإسلامية



تقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على من لا نبيَّ بعده.

أما بعد:

فهذه محاضرةٌ قيِّمةٌ نفيسةٌ لسيِّدي العلَّامة الوالد طيَّب الله ثراه، كانت في مطلع قرننا الهجري، أحببت نشرها مكتوبة مطبوعة ليعظم النفع بها، وليكثر انتشارها.

ورحم الله السيِّد الوالد؛ فقد كان أُمَّة وقِمَّة علَّامة مربِّيًا، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء.

وأنا ألتمس دعواتٍ طيِّباتٍ من المستفيدين منها لي ولوالدي رحمه الله تعالى، ولمن ساهم بنشرها، وأخصُّ منهم أخي الحبيب السيِّد طارق قباوة؛ لتبرعه بصفِّ المحاضرة، والله يقبلنا ويتقبل منا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

سلمان أبو غدة

جدة ٧/٥/١٤٤٠هـ





أسباب النبوغ عند السلف

الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللَّهُمَّ علِّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علَّمتنا، وزدنا علمًا وعملًا يا أرحم الراحمين.

وبعد:

أرجو أن يكون هذا الاجتماع مباركًا، بلقاء هذه الوجوه المؤمنة والنفوس الطاهرة، التي اجتمعت في هذه البلدة من آفاق شتَّى وبلدان مختلفة، لتقتبس العلم وتسلك سبيل السلف الصالح، وتحرص على أن تكون نافرة في سبيل الله؛ فترجع إلى قومها خيرًا مما كانت عليه، مزوَّدة بالعلم والتقوى.

ومثل هذا الاجتماع غالٍ نفيسٌ في موقعه؛ لأنه يجمع بين مشرقي ومغربي، وجنوبي وشمالي، يلتقون على اقتباس العلم وتحصيل المعرفة، وهذا شيء قلَّ أهله وندر الناس فيه؛ لأن الدنيا خطفت شباب الأمَّة من بساط العلم ووجَّهتهم إلى وجهات مختلفة، فالحمد لله الذي جمعنا في ظل العلم، ونسأل الله أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتَّبعون أحسنه.

الحديث إليكم أيها الإخوة عن موضوع كلُّنا يحرص أن يعرفه ويقتبسه لعله يحظى بشيء مما كان عليه السلف.

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في اتباع من خلف

السلف، إذا درسنا سيرتهم وجدنا العجائب والغرائب من الخبر الصادق، ووجدنا عندهم حقائق هي في مشهودنا ومعهودنا في يومنا هذا تشبه الأساطير، وما ذلك أنها من الأساطير، ولكنها من الحقائق. ولكن مشهودنا عكس علينا فيها هذا البعد؛ لأن الإنسان يحكم من منظوره أو معلومه، فإذا كان منظوره ضيِّقًا، أو معلومه قاصرًا، حكم من منظوره أو معلومه؛ فكان حكمه أبترَ ناقصًا أشلَّ، وهكذا حكمنا على كثير من قضايا السلف التي كانوا فيها أعاجيب بالخير وسبَّاقي غايات وأصحاب آيات في هذا المقام.

ومن هذا المقام الذي تميز به السلف: النبوغ.

النبوغ، ما مدلوله، أو: ما معناه؟

يمكن أن يقرب الإنسان هذا المعنى بكلمات: «أن يكون الإنسان على فطانة تامة، ومعرفة مبصرة، وحفظ، وعمل، وسلوك مترابط؛ فيأتي في الزمن القليل بالإنتاج الكثير الخصب النافع المثمر».

فقد كانت الساعات في زمن السلف تعد ساعات، ولكنها تثمر يانعة إلى يومنا هذا؛ نقطف من جناها ونأكل من ثمارها، وما برحت تعطينا هذه الثمار وتقدم لنا ذلك الجنى.

ما سبب ذلك؟

سبب ذلك في السلف أمور كثيرة، يمكن أن تجعل هذه الأمور التي تميز بها السلف عائدة إلى صورتين تقريبًا:

صورة ترجع إلى ذاتيتهم، وصورة ترجع إلى بيئتهم ومحيطهم واكتساباتهم.

فهناك أمور تأتي بالإنسان إلى الخير فتشدُّه شدًّا، وهناك أمور تعزف الإنسان عن الخير، ولكنَّ السلف ﷺ حظوا ببيئة شدَّتهم إلى الخير شدًّا، وكان عندهم استقبال لهذا الخير؛ فحينئذٍ أثمروا العجائب في هذا المقام.

هذه البيئة ـ التي نسميها السلف ـ بَدْؤُها وأُوَّلُها وأشراطها: النبيُّ ﷺ وسيرته الطاهرة وهديه الكريم، وشريعة الله ﷻ التي بلَّغها النبيُّ ﷺ من يوم بعثته إلى يوم وفاته عليه الصلاة والسلام؛ فكان لهذه الشريعة المطهَّرة والرسالة الكريمة أثرٌ على تلك الديار وذلك الزمان؛ فحينئذٍ سطعت هذه الشريعة على تلك البيئة وذاك الزمن؛ فأتت بتلك الخيرات التي لا تعدُّ ولا توصف، وإذا نظرنا إليها وجدناها كأنها الأعاجيب وكأنها الأساطير.

وأنا سأتحدث بقبسات في هذه الجوانب مجتزءًا بالنسبة لما أريد الكلام فيه؛ لأني أتحدث إلى أناس يفقهون هذه المعاني بالإشارة كما يفهمها غيرهم بالعبارة، وقديمًا قالوا:

تكفي اللبيب إشارة مرموزة وسواه يدعى بالنداء العالي

فأنتم ممن يفهمون بالإشارة، وهذا شأن طالب العلم: أن يفهم بالإشارة، ومن لم تعلِّمه العبارة ولا الإشارة فلا خير في أن يكون سالكًا سبيل العلم؛ فعليه أن يسلك الزراعة أو التجارة؛ لأن هناك ميدانًا يبتدع فيه.

فإذا أردنا أن نحدد هذه الأساليب وهذه الروافد التي جاءت بالخير للسلف، فنبغ فيه الكثيرون، وأتوا بالعجائب والغرائب المدهشة في هذا المقام؛ فيمكن أن نتحدَّث في أشياء كثيرة:

*** أولًا: قربهم ووجودهم في عهد النبي ﷺ:**

وأعني بالمذكورين في هذا الضمير: الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين، الذين يقال فيهم: **السلف**.

فالسلف رضي الله عنهم: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**».

فهذه القرون الخيِّرة الثلاثة الأولى ـ على امتدادها ـ كانت مشحونة بالخير، بشهادة النبي ﷺ أولًا، وبواقع حياة المسلمين ثانيًا.

فأول هذه البيئة التي ولَّدت هذا النبوغ قُربُ الناس في عهد النبيِّ ﷺ من سيرته الكريمة وهديه الشريف؛ فلذلك كانوا يعيشون في بيئة مسلمة، تقوم فيها الحياة المسلمة ـ علمًا وعملًا وسلوكًا وتنظيمًا ومنهجًا في الحياة ـ، فلا يشهدون إلا الخير ولا يسمعون إلا الخير، وإذا وُجِدَ في الناس مخالفٌ أو ضعيفٌ أو مستهوٍ من الشيطان، فمثله كمثل خطٍّ ضعيف في ضوء الشمس لا يؤثر على بيئة الناس؛ لأن نور النبوَّة وهدي الرسالة كان ساطعًا شاملًا ممتدًا إلى آفاق المسلمين.

فإذا نظرنا إلى البيئة التي كانت في عهد النبي ﷺ وجدناها خير بيئة أخرجت للناس؛ لأنها يعيش فيها:

أولًا: كلمة التوحيد.

ثانيًا: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

وإلى جانب هذا وهذا: التزود من العلم، في كل مناسبة وظرف، صباحًا ومساءً، غدوًّا وعشيًّا؛ فكان العلم عندهم هجِّيْراهم، وهجيراه ديدنهم، لا ينفكُّون عنه، ولذلك يجلسون على العلم ويقومون على العلم.

أضرب لكم مثلًا مقربًا: لو أننا في حرب إسلامية مع العدو، فهل ترون إنسانًا من المجاهدين يجلس فيتحدث عن ملكة جمال العالم؟! يجلس فيتحدث عن هذه السخافات؟!. لا يمكن، إنما حديثه عن: هذه الجبهة انتصرت، وهذه الجبهة ضعفت، وهذه الجبهة تحتاج إلى مدد، وفلان استشهد، وفلان استبسل، وهكذا....

فكان الناس في زمن الصحابة والتابعين هذا حديثهم.

فحديثهم: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة..

وعندهم أسباب لذلك كثيرة؛ لأنهم خرجوا من ظلمة إلى النور، والذي يخرج من الظلمة إلى النور يشهد ثمن النور حقيقة، وقد قال سيدنا عمر ﵁ ـ وهو المُحَدَّث الملهم، وقد قال فيه النبي ﷺ: «**لقد كان فيمن كان قبلكم مُحدَّثون، فإن يكن في أمتي فعمر بن الخطاب منهم**». المُحَدَّث: الذي يلهَمُ الصوابَ والسَّداد من طبيعته، ليس عنده صلة بالسماء كوحي الله إلى سيدنا محمد ﷺ، هذا موحىً إليه، ولكن مثلُ أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ﵃ وباقي الصحابة المشهود لهم بالخير من النبوة، هؤلاء أُوتوا هذا الالهام، فيقول النبي ﷺ في سيِّدنا عمر «**لقد كان فيمن كان قبلكم مُحَدَّثُون فإن يكن في أمتي فعمر بن الخطاب منهم**».

سيدنا عمر ﵁ يقول في هذا الذي ذكرته ـ وهو أنهم خرجوا من الظلمة إلى النور، فقدروا النور قدره، يقول سيدنا عمر ﵁ في هذا المقام ـ: «إنما تُنْقَضُ عُرَى الإسلام عُرْوَة عُرْوَة إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية». فلا يَقدر قدر الإسلام؛ ويراه شيئًا طبيعيًا عاديًا رخيصًا، أبسط ما يكون الزهد فيه لأنه نشأ عليه.

لو ضربنا مثلًا في صورة من الصور المعيشية التي نحياها:

لو أن إنسانًا ولد في بيت اليسار والسعة، فهذا الإنسان: الخبز عنده أبسط شيء؛ لأنه يأكل ألوانًا؛ فهو لا يدري قيمة الخبز وقيمة هذه النعمة؛ لأنه يعيش في الرفاهية ويخوض فيها خوضًا، ولكن لو عضّه الدهر يومًا والفقر بنابه يومًا، ودرى قيمة النعمة، فحينئذٍ يقدّر قدر الخبز وغيره من نعمة الله ﷻ، فيعرف قيمة هذه النعمة، فإذا أكل وحمد الله ﷻ؛ حمده من داخله لا من ظاهر شفتيه.

فكان السلف ـ من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان ـ شهدوا الجاهلية وآثارها، وعرفوها تمام المعرفة، فلما سطعت عليهم أنوار الرسالة المحمدية، وهدي الله ﷻ في هذا الدين الكريم الإسلام، حينئذ تعشّقوه؛ فأصبح ديدنهم وليلهم ونهارهم، وانفضُّوا إليه كل الانفضاض، فأصبح الإنسان منهم أعزُّ شيء عليه أنْ يحيي هذا الدين، وأنْ يزيد هذا الدين، وأنْ يغنى هذا الدين، وأنْ يقدِّم لهذا الدين شيئًا من وجوده، حتى يؤدي بعض حقِّ الله ﷻ عليه؛ فكان أولُ شيء ـ قربهم من عهد النبي ﷺ ـ مكّن لهم البيئة الصالحة، والبيئة الصالحة هي أكبر معوان على الخير، ولذلك قال النبي ﷺ **«لا تصاحب إلا مؤمنًا ولا يأكل طعامك إلا تقي»**.

فلو فرضنا أن بجانب مدرسة من المدراس ملهىً من الملاهي، فلا بدَّ أنَّ أصحاب هذه المدرسة سيصابون بهوى هذا الملهى قليلًا أو كثيرًا؛ لأنَّ بجوارهم من يمرُّ عليه فيُؤخذ به حينًا أو يُعرِض عنه حينًا، ولكن إذا كانوا في بيئة محفوظة من الوباء، هذا الوباء الاجتماعي، فحينئذٍ ما يمرُّ بخاطرهم هذه المفاسد، وكذلك الإنسان عندما يكون في بيئة صالحة يشهد فيها الناس كما ذكر في شأن الصحابة والتابعين وتابعيهم: **«رهبانًا في الليل فرسانًا في النهار»** ـ وصف الصحابة والتابعين بأنهم كانوا: رهبانًا في الليل عبّادًا زهّادًا

قوّامًا صوّامًا وفي النهار فرسانًا ـ، هكذا كانوا، من أين جاءت هذه الجدِّيَّة؟! جاءت هذه الجدية مِنْ صُحْبَة النبيِّ ﷺ، أو مَنْ صحب النبيَّ عليه الصلاة والسلام.

فأنت تقتبس من المباشر، أو ممن نقل عن المباشر، وتستفيد من هذا شحنةً كبيرة في سلوكك؛ فأنت لو رأيت إنسانًا صالحًا، هذه الرؤية منك له تُعدُّ زادًا روحيًا يغسل قلبك إلى آخر الحياة، وتتمتع به وتعتز به كثيرًا، فإذا رآك إنسان قال: رأيت من رأى فلانًا. فهذا قول النبي ﷺ: «**طوبى لمن رآني، ولمن رأى من رأى من رآني، ولمن رأى من رأى من رأى من رآني**».

هذا المعنى كان يتمتع به الصحابة والتابعين ﵃؛ فكان عندهم القدوة والأسوة والحياة والنموذج للوجود كلِّه: الرسول ﷺ؛ فلذلك ما كان بينهم إلا: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة، قال أهل العلم، وهكذا...

فأول ما شحنهم بالخير وجعلهم من أهل النبوغ: قربهم من عهد النبي ﷺ، واتصالهم به إن كانوا صحابة، أو اتصالهم بمن رأى النبي ﷺ إن كانوا من التابعين.

لما حظوا برؤية النبي ﷺ صلح داخلهم، وإذا صلح الداخل صلح الظاهر.

ما هذا الداخل الذي أعنيه؟

هو العقيدة، الاعتقاد بالله ﷻ.

فصَفَت عقيدتهم، وخلُصتْ من كل شائبة، ورجعت إلى الحقيقة التي هي مفروضة على كل مخلوق: أن يؤمن بالله ربًا، وبمحمد رسولًا، وبالإسلام دينًا.

هذا المعنى تحقَّق عندهم تمام التحقُّق، فصار كل واحد منهم

يدرك هذه الحقيقة بفطرته.. كيف يدرك بفطرته وقد يكون أميًا لا يدري الكتابة؟! يشهدها من محيطه.

وأنا أُقَرِّب لكم هذا:

لو أننا في قرية وفيها بعض العلماء الصالحين، وأهل القرية لا يكتبون ولا يقرؤن لاشتغالهم بالزراعة والفلاحة وما إلى ذلك، ولكن إذا كان في هؤلاء العلماء الصالحين ـ وهم قلّة في القرية ـ صلاحٌ وفلاحٌ وعلمٌ، فَهُم نموذجٌ حيٌّ، فتجد أهل القرية أهل صلاح مع أُمِّيتهم. ولا يتوقف الصلاح على القراءة والكتابة ومعرفة الخط، وإنما يتوقف على القدوة الصالحة، فكانوا يشهدون القدوة الصالحة في ذات النبي ﷺ، أو في ذات الصحابة، أو في ذات التابعين؛ فترسَّخت العقيدة في نفوسهم ترسُّخًا تامًّا، فصفت هذه العقيدة؛ فصار عندهم الموت أحبُّ إليهم من الحياة في سبيل الله ﷻ.. رُخْصُ أنفسهم حقيقةٌ وليس دعوةً أو نداءً أو هتافًا أو شيئًا من هذا، وإنما كانت الحياة في أيديهم أرخص من المال في يد الغني الكريم، لماذا؟ لأنهم كانوا يعتقدون اعتقادًا جازمًا: أن الجنة حق، وينبغي المبادرة لها.

طبعًا، نحن الآن نعتقد أنَّ الجنة حقٌّ لكن لماذا لا نبادر؟

هناك معوِّقات، لا تشحننا هذه الشحنة التي رأوها.

عندنا معوقات كثيرة، منها: البيئة، وأكل المال المشبوه إن لم نقل الحرام، وسلوك الضعيف، ووجودنا في بيئة مختلطة بالضعف أو البيئة المختلفة بالحياة، فلذلك لو أراد إنسان منا أن يتشجع فيبادر بنفسه جذبته الجواذب إلى الوراء، يقول بلسانه ولكن لا تستجيب جوارحه؛ لأنه لا يُشد إلى الإمام، بل يُشد إلى الوراء والأرض.

وأما هم فكانت جواذب الخير تجذبهم من كل مكان، فكانوا

أهل صلاح وفلاح، وعندهم هذه العقيدة نقيَّة، إذا صَفَت هذه العقيدة حينئذ صلح العقل.. هذا العقل يستمد من صفاء العقيدة؛ فكان السلف نقيًّا تمامًا؛ فكان الإنسان منهم - وليس هو كاتبًا أو قارئًا - يدرك الحلال والحرام بالتحسُّس، بالرائحة والشم، لماذا؟ لكثرة ما يشاهد.

الطفل كيف يتعلم منك الأدب؟ وإذا قلت له: هذا من الأدب، وهذا من الواجب، وهذا من السُّنَّة، وهذا من المستحب؛ ما فهم عليك إلا أنها كلمات يضرب بعضها بعضًا.. ولكن إذا وجدك تضحك عند الحسنة، وتعبِس عند القبيح، وتشمئز عند الغلط، ورأى مشاعرك تلتفت هكذا وهكذا؛ علم بجوارحه أنَّ هذا مستحسن، وهذا مستبشع؛ فانطبع في قلبه المستحسن، وكره بعد ذلك المستبشع وتوارى منه.. يتوارى الطفل بمشهوده لا بمسموعه؛ لأنه لا يدرك معنى الكلمة، وإنما يدرك تصرفات من حوله.. فعندما يدرك التصرفات الصحيحة؛ التي عندها تنبسط أسارير الوجه، فحينئذٍ إذا فعلها ابتهج والتفت ليسر الناس به، وإذا فعل شيئًا مما لا يستحسن تجده انزوى وانحجب عن نفسه وعن الناس، وخرج من محيطه الذي هو فيه؛ لأنه لا يدري ما سبب ذلك، ولكن علم من قِبَل أمه وأبيه أو بيئته التي يحياها أنَّ هذا مستبشع.

وكان السلف يدركون بهذا المقياس النابض في القلب الحَسَن والقبيح، وليسوا كلهم متعلمين بالمعنى الجامعي اليوم - يعني: أصحاب شهادات، موصِّلين للماجستير ويدخلون للدكتوراه، لم يكن عندهم مثل هذا، وهذا مما أكرمهم الله ﷻ بفقده -، ولكن أكرمهم بالخير الذي نحن نعيش في ظلِّه، فما شُغلوا بالوَرَق عن مضمون الوَرَق، ما شُغلوا بهذه المظاهر عن مضمونها، فكان عندهم اللقاء

على العبادة والزهد والعمل الصالح، فكان الزهد والخُلُق والفضيلة ـ وما إلى ذلك ـ، ديدنهم من الاقتداء. فعندنا أولًا: قربهم من عهد النبي ﷺ.

*** ثانيًا: صفاء العقيدة:**

صفاء العقيدة ينوِّر العقل فيصبح الإنسان مستنيرًا.

حينما يستنير العقل يجد الفطرة، حينئذٍ تتحرك في القلب، فيكون في الإنسان إدراك خاص، وهو: أن يستحسن ما يأتي على مقاييس الشرع، ويستهجن ما لا يأتي على مقاييس الشرع.

من أين يَعْرِف هذا وهو ليس بطالب علم أو عالم؟

يعرفه من المحيط الذي يحياه، كما ذكرت لكم المثل في الطفل الصغير، ما عنده قدرة أن نقول له: قال أبو حنيفة، أو قال مالك، أو قال الشافعي كذا، فلا يفهم هذا، ولكن يفهم من تعبيس الوجوه واستبشارها، فكان المحيط الذي يحيون فيه يحقق هذا المعنى على أفضل وجه؛ فالتفقه: من سلوك الناس، العلم: من مشاهدة الناس، فكان عندهم هذا المسلك قائمًا في محيطهم وبيئتهم، فتحققت لهم أسباب هيأت لهم النبوغ الذي نريد الحديث عنه.

فلما قام صفاء العقل، وانتفت المعارضات من الذهن؛ حينئذ عاش العقل سليمًا قويمًا يُقدِّر الخير ويسعى إليه.

وأُوْضِحُ هذا الكلام: أنه قد يكون في العقل صفاء ولكن عليه كوابس تمنعه، مثل ما نعيش فيه اليوم: الغزو الفكري، أو الإلحاد الفكري، أو الكفر المنظَّم، أو ما إلى ذلك من هذه الأسماء التي اختلفت ألفاظها واتحدت معانيها، هذه إذا كانت تعرض للإنسان في

طريقه، فإذا فرغ منها جاء الغزو النفسي ـ بالشهوة والنزوة والمحيط الفاسد والإغراء بالمال وما إلى ذلك ـ؛ فإذا خلا الإنسان من هذه النزوات والشهوات والمغريات والمؤثرات حينئذٍ استقام له فكره تمامًا، فكان المحيطُ صفاءَ عقيدةٍ وقرب عهد بالنبيِّ ﷺ وحياته وسيرته وسيرة أصحابه، مع امتناع هذه الموانع، ومع ابتعاد هذه الكوابس الشريرة الفاسدة، فحينئذٍ يتكلم كل الإنسان عن الإسلام ويريد الإسلام، وليس في وسط الناس إلا الإسلام، فلذلك يعيش الإسلام جيدًا، حيًّا قويًّا مبصرًا؛ فاستفادوا من هذه البيئة هذه المعاني التي أُلمعُ إليها وأنتم أعلم مني بها.

* إذا نظرنا إليهم في هذه الملابسات وجدنا أيضًا: **يمكن أن يُضاف إلى هذه العناصر التي ذكرتها عنصرٌ آخر، وهو:**

أن أهل العلم ـ الذين نبغوا وسبغوا بالخير سلوكهم وآثارهم، وجدنا أنهم ـ **يتصفون بصفتين: العقل والنسك**...

العقل: مدلوله معروف لنا جميعًا.

والنسك: المراد به الصلاح.

فكان عندهم في طلب العلم: عقل ونسك.

وقد قال علَّامة التابعين الشعبي عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي، المولود سنة ١٧ من الهجرة والمتوفى سنة ١٠٣ للهجرة، هذا التابعي الجليل الشعبي رحمه الله تعالى، قال في هذا المقام: «إنما كان يطلب هذا العلم من جمع النسك والعقل، فإذا كان عاقلًا بلا نسك قيل: هذا لا يناله، وإن كان ناسكًا ولم يكن عاقلًا قيل: هذا أمر لا يناله إلا العقلاء».

فبيَّن الشعبي رضي الله عنه ركيزة ما كان عليه السلف، كيف؟ عقل ونسك؛ لأن النسك إذا خلا الإنسان منه حينئذ يكون شيطانًا عاقلًا،

شيطانًا خبيثًا؛ لأن عنده عقل وذكاء وغُذِي بالعلم، فحينئذ يكون عنده شيطنة المفسدين:

ولو كان في العلم من دون التقى شرف كان أشرف خلق اللَّه إبليسُ

لأنـــــه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص: ٧٦] عنده محاجات في الجدل، فإذن العلم وحده من حيث هو إذا كان غير مصحوب بنسك لا خير فيه.

والنسك وحده من غير عقل يكون بلاهة؛ فيصدق الإنسان الخرافات والأكاذيب؛ فكان السلف يقولون: إنما يطلب هذا العلم مَنْ جَمع بين النسك والعقل.

فهذا كلام الشعبي رحمه الله تعالى، له مدلوله الكبير في أسباب النبوغ عند السلف، فكان فيهم العالم العاقل.

ومن المؤسف في حاضرنا اليوم ـ وكلنا ضعيف ـ أنَّ الذكيَّ الفطن يذهب إلى غير العلم الشرعي، والذي يكون على بلاهة، أو على عاهة، أو نقص، أو على بعض جدبنة، هذا يقال فيه أريد أن أخرجه طالب علم، هذا أريد أن أقدمه لله ﷻ، وذاك الذكي الحصيف النبيه ذاك يصرف إلى أن يكون كذا، وهذا يصرف إلى أن يكون طالب علم، هذه بلية متلبسون بها وواقعون بها، وسببها البيئة التي تكبس على الناس فينصرف منها إنسان ويقع فيها إنسان.

فالسلف ﷺ كانوا يقدمون إلى العلم أفضل ما عندهم وأجوده، فكان صاحب العقل هو صاحب العلم، فلذلك إذا حوى العقل والعلم كان نهرًا فياضًا نميرًا عذبًا فراتًا دائم الثمرات والخيرات، أما إذا كان عقلًا بلا علم، بلا نسك؛ فلا خير فيه.. وإذا كان نسكًا بلا عقل؛ فلا خير فيه؛ لأننا قد نشهد بعض المشايخ

عندهم صلاح كبير، ولكن لا تؤخذ شهادتهم، قال الإمام مالك ﵁ في بعض من ردَّ حديثهم من أناس في السَّنَد ـ وكان عندهم زهادة وريادة وصلاح كبير، ولكن ما كان عندهم ضبط العقل والعلم والنباهة، فقال ـ: «مثل هؤلاء يستسقى بهم الغمام، ولكن لا يصح أن يؤخذ منهم الحديث». لأن الحديث يحتاج إلى ضبط وإتقان، فمن لم يتحقق منه هذا الضبط والإتقان فلا ينظر إليه.

فعلى هذا الاعتبار، كان السلف ﷺ إنما يقدِّموا إلى طلب العلم مَنْ جمع بين النسك والعقل.

وبهذه المناسبة، أنصح الإخوة في أمر، وهو: أن يقرؤوا تراجم السلف؛ لأنها تصلهم بالسلف شمًّا وذوقًا وعلمًا؛ لأن الإنسان منا أكبر ما عنده شيخه في هذا الزمن، فإذا كان الشيوخ في هذا الزمن ممن نعرف، فالقدوة تكون ضعيفة، أما إذا نظرنا في السلف وطرقنا سيرتهم تكون القدوة قوية غنية مثمرة، فأنصح الإخوة أن يقرؤوا ترجمة الإمام الشعبي هذا عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي الإمام المحدث، في أحد كتابين أو في أكثر من كتاب، فإذا قرأتم ترجمته في كتاب: «تذكرة الحفاظ» للذهبي، وأوسع منه أن تقرؤوا ترجمته في: «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام» للذهبي، أو في «سير أعلام النبلاء» للذهبي، فإنه قد استوفى في هذه الكتب جملة كبيرة من حياة هذا الإمام، وكلام الذهبي كلام الذي يختار الخِيَرة من الترجمة، فإذا أردتم الأسوة فاقرؤوا تراجم السلف، فأنصح الإخوة بقراءة مثل الشعبي، أو مثل ابن جرير الطبري في كتاب «معجم الأدباء» فإذا قرأتموها انتفعتم بها ولا ريب بإذن الله ﷻ، فقراءة تراجم السلف تشحن الإنسان بالخير؛ لأنه يكون قريبًا من القدوة، وقريبًا من حياة الناس، فأحب من الإخوة

في هذه المناسبة أن يقرؤوا تراجم العلماء من هذا النمط، من مثل ابن جرير أو الإمام أحمد أو أبي حنيفة أو الشافعي أو ما إلى ذلك من هؤلاء، ففي ترجمتهم فضل كبير على الإنسان في سلوكه إذا قرأها. هذا عنصر من العناصر التي أشرت إليها.

*** عنصر آخر، ويمكن أن نعده العنصر الرابع، وهو:**

كانت القدوة منحصرة في النبي ﷺ. فليس عندهم قدوة إلا النبي ﷺ لا غير.

وهذا يريح البال ويزيد في القوة، والعلم والاقتداء والاكتساء، أما إذا كان الإنسان موزعًا منهوبًا لهذه الفترة من المغريات والانحرافات فحينئذ لا يستقر له قرار، فكان السلف عندهم القدوة منحصرة في النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فكان هذا الانحسار في القدوة مركز طمأنينة لهم، ولذلك يعلمون من رسول الله ﷺ أكله وشربه وكل تصرفاته لأنه هو القدوة في كل شيء؛ فكانوا على هذا محل أن ينبغوا؛ لأنهم يتأسسون بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام.

أما إذا سلك الإنسان مسلكًا ليس فيه السيرة وأراد أن يكون على السيرة فهذا كما يقول الزمخشري: «رب كلمة تقول لقائلها دعني، ورب ثوب يقول للابسه اخلعني»، يريد أن يكون من السلف وبيته ليس من السلف، كيف يكون من السلف؟ أُحِبُّ الصالحين ولستُ منهم؟ لا فائدة.

صحيح أن محبة الصالحين طيبة، ولكن لا يمكن أن أكون صالحًا؛ فالصلاح ينبت من الداخل والقلب والبيئة، أما محبة على السطح فهذا لا يفيد.

فكان عندهم سيرة النبي ﷺ ـ في هديه، وفي شرعه، وفي أمره، وفي نهيه ـ تحيا كل الحياة، فلذلك يحافظون على سيرته كل

المحافظة، فما كان عندهم هذه التقسيمات التي نجدها في كتب الفقه على سبيل التثبيت، فعندنا بعض الأحكام تأخذ اسم الندب، واسم السُّنَّة، واسم المستحب أو الرغيبة.. هذا ما كان في لسانهم، وإنما كان يُطلب هذا الشيء أو يُنهى عنه، فقد يكون مطلوبًا وهو واجب فهو مطلوب، وقد يكون مطلوبًا وهو مندوب فهو مطلوب، وقد يكون مطلوبًا وهو مستحب فهو مطلوب، وقد يكون حرامًا وهو مكروه فهو متروك، وقد يكون مكروهًا تنزيهًا فهو متروك؛ يعني عندهم: **إما هذا مطلوب فيفعل، وإما منهي فيترك**، فكان عندهم الاقتداء والإتساء قائم على هذا.

أما إذا نظرنا إلينا، نجد هناك تخلُّف عن هذا المعنى، فعندنا أمراض كثيرة، ومن جملة هذه الأمراض ما لحقنا في كثير من المناسبات: أن الإنسان إذا سئل عن أمر من الأمور فيقول في جوابه: «إنه سنة»، فيقال له: إنه ينبغي فعله، فيقول: «سنة»!! فيساوي «سنة» عنده ـ يعني ـ: جواز تركه، ومدلول «السُّنَّة» عنده يعني: يجوز تركه، فلماذا تلزمني به؟!

صحيح، ليس على سبيل الالزام، ولكن «السُّنَّة» يحافَظُ على فعلها لأنها من الشرع، وليست هي مثل ما كنا نعتقده ونحن صغار أنها من تشريع النبي ﷺ، الإنسان عندما يكون صغيرًا نقول له: «سُنَّة»، الولد الصغير نقول له: «صلِّ»، فيصلِّي الفرض؛ لأنه يفهم أنَّ الفرض هذا من الله تعالى، أما السُّنَّة القبلية أو السُّنَّة البعدية فهذه من الرسول يعني يمكن المساهلة، هكذا يفهم الطفل، ولكنَّ السُّنَّة القبلية والسنة البعدية والفرض كلَّها من الله تعالى، مأمور فيه؛ فالرسول ﷺ ما جاء من عند أمه أو أبيه بشيء، وما جاء من عند نفسه بشيء، وإنما هو وحي يُوحى؛ فإذن، هذا التصرف الذي وقع

فينا نحن تخلف فينا السلوك كثيرًا. . أما السلف، فكان عندهم الاقتداء والاتساء والقدوة والعظمة هو الرسول ﷺ.

ولأبين لكم كيف تزعزعت القدوة:

اليوم، نحن، صار هناك أناس يقتدون بغير المسلمين، ويرونهم الشمس الساطعة، يرون الكفار والنصارى وغيرهم الشمس الساطعة على الدنيا، ويرون الاقتداء بالإسلام والاقتداء بسُنَّة النبي ﷺ غمَّة وبلاء على قلوبهم؛ لأن عيونهم لا ترى الحقائق، هذا حصل في هذا العصر، ويحصل في أبناء المسلمين من بني جلدتنا.

في السَّلف ما كان هذا موجودًا؛ كانت الوجوه والقلوب والعقول والطلبة جميعًا متوجهة عقولهم إلى القدوة برسول الله ﷺ؛ فيخرج الصالحون الكثيرون النبغاء العارفون.

أما في يومنا هذا، فتوزعت وتزعزعت القدوة، فصارت القدوة في الناس: كل إنسان يرى الشيء القدوة بتفكيره لا بما يرثه من أبيه وأمه ودينه!!! فلذلك تزعزع السلوك وضعف. .

فالسلف رضي الله عنهم ما كانت عندهم هذه الأمراض، فقويت فيهم القدوة الصالحة، فكانوا يشبَّهون بالصحابة رضي الله عنهم تشبيهًا، كان بعض السلف يُزكَّى في الكوفة أو البصرة فيقال: «ليس في المسلمين أحد أصلح منه، إلا أن يكون من أصحاب النبي ﷺ».

من أين جاءت هذه التزكية؟ جاءت هذه التزكية من سلوكهم وبيئتهم التي يحيون فيها، فكان عندهم انحصار القدوة بالنبي ﷺ أمرًا طبيعيًا.

ومن المؤسف، وقد لا ينطبق الكلام على جميع بلدان المسلمين؛ لأن الملابسات الوجودية تختلف بين بلد وآخر، أما في بلدنا سوريا: كان الناس قبل عشرين أو ثلاثين سنة يضعون لوحات

في بيوتهم أو حوانيتهم الاجتماعية، يضعون لوحات مكتوب عليها: «محمد ﷺ»، «أبو بكر رضي الله عنه»، «عمر رضي الله عنه»، «عثمان رضي الله عنه»، «علي رضي الله عنه»، يزينون الغرفة بهذه اللوحات، ما معنى هذا الأمر؟ معناه: أن هؤلاء هم القدوة هم الأسوة هم العزة، هم طريق الحق. هذا المعنى انسلَّ وغاب، فبُدِّلت به صور مخنثة وماجنة وأسماء كافرة، وأين القدوة في هكذا تحوُّل، فمن أين يأتي النبوغ لأناس يحيط بهم هذا المظهر أو هذه الحقيقة؟!

فالسلف رضي الله عنهم كان عندهم هذا المعنى ـ الذي هو أبو بكر أو عمر أو عثمان أو علي رضي الله عنهم ـ ليس كتابة كما كان عند الأقربين؛ بل كان انطباعًا، فكانوا يذكرون عمر ويعرفون عنه ما يعرف الكثير منا عن الأجانب أو بعض الأشخاص السياسيين أو غيرهم، فكان عندهم عمر معروفًا بسلوكه المنطبع في سلوكهم، وكانت عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما تقول: «زينوا مجالسكم بذكر عمر».

فكان السلف هكذا عندهم القدوة والأسوة: الرسول ﷺ، والصحابة، والتابعين. هذا المعنى عندما يكون موجودًا يطمئن القلب، ويمكن أن يفلح السلوك. أما عندما يكون الإنسان موزعًا في القدوة، وليس عنده قدوة، وهكذا يتخبط يمينًا أو يسارًا؛ فوصوله إلى النبوغ بينه وبينه آماد وأبعاد طويلة، فهذا من جملة الروافد التي مكَّنت السلف رضي الله عنهم من هذا المعنى.

*** إذا نظرنا إلى عنصر آخر يمكن أن نقول:**

نقاء المجتمع من الفساد الأخلاقي:

المجتمع إذا كان فيه فساد أخلاقي لا بد أن يأتي على من بجواره لممًا أو غممًا، لا بد، إذا حلَّ الحريق بدار جارك فلا بد أن يصيبك منه ولو دخان، لا بد، أو رائحة دخان، أو هُبَاب

الدخان، لا بد، لا يوجد في المجتمع الإسلامي أو المجتمع الدنيوي من يقول: أنا بنفسي أعيش، بنفسي؟ لا . . . ، لا يوجد، فهو متصل بالناس، شاء أم أبى، متأثر بهم - خيرًا بخير أو شرًا بشر -، إذا كان عندك جار صالح زكَّاك أو حَسَّن منك السلوك، أو زادك في الخير أو قلَّل من شَرِّك، وإذا كان لك جار طالح أفسدك، أو عرَّج بك على الشر، أو زاد في شَرِّك ولا ريب.

فلهذا الإنسان بصاحبه وساحبه، فصاحبه ساحبه، فإذا أراد أن يعرف نفسه فلينظر من يصاحب، يقول النبي ﷺ: «**المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل**».

إذا أردت أن تعرف: أنت من الصالحين أم لا؟ فانظر إلى من تصاحبه، إذا كان معدودًا من الصالحين فأنت إلى قربه، وأما إذا لم يكن معدودًا منهم فأنت إلى بعده.

فالسلف كان عندهم نقاء المجتمع من الفساد الأخلاقي، فليس معنى هذا أن يتصور متصور أن لا يقع فيهم خطأ، يقع، ولكن سواد الأمَّة على الصلاح والفلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما كان هناك حماية للشر أو استظهار له وإنما الشر كان مكبوتًا خائفًا، ولكن إذا كنا في مجتمع يعلو فيه الشر وتحمى فيه الرذيلة، وتعان فيه المفاسد، ويضطهد فيه الخلق الكريم! فمن أين يأتي الصلاح والفلاح؟! أمر مستغرب.

فكان عندهم نقاء المجتمع الأخلاقي تامًّا كبيرًا، فمَكَّن لهم الصلاح الذاتي، فصار الإنسان غير مشغول بغيره.

طبعًا، إذا كان الإنسان مشغولًا بغيره فلا يفلح.

قالوا: كيف يكون مشغولًا بغيره؟!

قالوا: كما قال الأعشى في هذا:

عُلِّقْتُها عَرَضًا، وعُلِّقتْ رَجُلًا غيري، وعُلِّقَ أخرى ذلك الرجلُ

وهذا يحتاج إلى تفسير، والأمثال بها فائدة:

يقول: «عُلِّقْتُها عَرَضًا»؛ يعني: أنا ماشي، تعلَّق قلبي بها، ووقعت في شَرَكها. «وعُلِّقَتْ رَجُلًا غيري»: وهي متعلقة بغيري. «وعُلِّقَ أخرى ذلك الرجل»، مشربكين، هكذا.

وهكذا يعيش الناس في المجتمع، فهذا مشبوك بهذا، وهذا مشبوك بهذا، وأين السلامة؟

لا أحد يبحث عن السلامة؛ لأنهم أصحاب أهواء، فكل واحد هواه يجذبه إلى الشر، فيتعلق به الشر أو يتعلق هو بالشر، فلا يمكن لهذا الذهن أن يأتي له الصفاء والنماء؛ لأن الإنسان إذا كان مشغولًا بغيره لا يمكن أن يفكر تفكيرًا سديدًا؛ فلاحظ، أنه كما قال المثل العربي ـ ويروى حديثًا مع أنه ليس بحديث، وإن كان ذكر في بعض كتب السُّنَّة في غريب الآثار ـ: «**لا رأي لحاقن، ولا حاقب، ولا حازق**». **الرأي**: معروف، وهو: إبداء السداد والرشاد في المسألة، قال: لا يؤخذ رأي من كان حاقبًا، أو حاقنًا، أو حازقًا. **الحاقن**: الذي عنده حصر البول، يريد أن يبول، فلا يؤخذ رأيه؛ مشغول ذهنه. **والحاقب**: الذي عنده الأمر الآخر، فكذلك مشغول ذهنه، وهذا أمر خفيف على النفس، فكيف إذا كان القلب كله مشغولًا بغيره؟! لا يمكن أن يكون هناك عقل؛ إذا كان في هذين الأمرين الضعيفين يذهب التفكير، فكيف بالذي يكون قلبه معلقًا بغيره؛ فحينئذٍ قالوا: «لا رأي لحاقب، ولا حاقن، ولا حازق»، **والحازق**: هو صاحب الحذاء الضيق، إذا كان حذاؤه ضيِّقًا كذلك يكون فكره غير صاف..

الإنسان حساس، أشد من الهواء تحسّسًا. الهواء، وهذه المقاييس التي يضعونها، القلب أشدُّ إحساسًا، القلب بالخواطر يتأثَّر، وهذه المقاييس لا تتأثر بالخواطر؛ تتأثر بالهواء، بالشمس، بالعواصف تتأثر، ولكن الفكر والقلب الذي خلقنا الله عليه يتأثر بالخواطر انشراحًا وانقباضًا. فإذا كان هكذا ـ لا رأي لحاقب، ولا حاقن، ولا حازق ـ فكيف إذا كان مشغولًا بغيره؟ يصبح على شغل في غيره ويمسي، فمن أين يأتيه النور.. فالسلف، كان هذا مفقودًا في مجتمعهم، فما كان مشغولًا إلا بقال الله، قال رسوله، قال الصحابة ﭫ، فهذا المعنى يهيئ الأمور، وإذا نظرنا مثلًا إلى مثال القلب.

الآن عندنا مدارس شرعيَّة ومدارس عامَّة، والمدارس العامة التي ننظر إليها إذا وجدناها بالآلاف المؤلفة تبلغ في بعض البلدان ملايين، هذه الملايين المعدودة بالنسبة لكثافة السكان.. حين كان السلف كانت كلها تورد مورد المسجد، تسمع وترى وتعيش: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة، فيمكن أن يخرج من هذا العدد الكثير الوفير نبغاء أم لا؟ طبيعي أن يخرج، لماذا؛ لأن الكثرة فيها يمكن أن تمكن، ولكن إذا جئنا بمئة شخص زوتهم الزوايي فأصبحوا طلبة علم، زوتهم الأيام ومنعتهم المجاميع في الأرقام التي تؤخذ في الشهادات، المجاميع الثانوية، تزويهم المجاميع القليلة، فيقولون: نُيمم الجامع، أو نتأمم طلب العلم الشرعي، فهل يمكن أن يأتي منهم نبوغ مع كل هذه العوارض؟ لا يمكن.

لذلك عندما يكون الإنسان موفرًا له الخير وموفرًا له القدوة وموفرًا له الصفاء ويتوجه إلى الشيء بكليته يمكن أن يأتي منه نبوغ طبيعي، وأما بعد ذلك فيكون نبوغه مصطنعًا، بالنسبة لأمثاله ليس

نبوغًا، لأنه يعد فلان نابغًا بالنسبة لمحيطه، ولكن ليس فينا نابغ بالنسبة للسلف؛ لأن السلف شيء آخر.

إذا سمعت أن ابن جرير رحمه الله تعالى كان يكتب في اليوم الواحد تأليفًا أربعين ورقة، وعُدَّ ما ألَّفه وما كتبه من يوم أن عقل إلى يوم أن توفي فكان كل يوم ١٤ ورقة، وقد عاش ٨٦ سنة، من أين هذا؟! ولا وسائل كتابية ولا شيء، والحياة خشنة، والمواصلات صعبة، والورق قليل، ولا يوجد آلات كاتبة وما إلى ذلك!!

الآن لو قيل للطلبة: عليك هذا الكتاب مبلغه ٥٠٠ صفحة، يقول: إن هذا من العذاب الأليم ومن الأعمال الشاقة وهذا صعب ألا يمكن الاختصار؟! يتحايلون على الأستاذ فيأخذون المهم وغير المهم، أقل شي.. هذا لا يوجد عند السلف؛ لأن الإقبال عندهم على العلم كثير، وكان الجو صافيًا، فكان الذهن لا يتعلق إلا بـ: قال الله، قال رسوله، قال الصحابة رضي الله عنهم.

فإذن، صفاء المجتمع من الفساد الأخلاقي حقق لهم نقاء عقليًّا وتوجهًا تامًّا، فهذا المعنى كان متحققًا، فيسر لهم الحديث الذي نريد الحديث عنه.

*** ثم شيء آخر كان يشيع عندهم: الزهد.**

الزهد متى يكون زهدًا؟!

قالوا: إنما يكون الشيء زهدًا إذا وجد فأعرض الإنسان عنه، أما إذا لم يوجد وأعرض الإنسان عنه فلا يسمى زهدًا.

أوضح لكم معنى الزهد: متى يقال للشيء زهدًا؟

إذا وجد المال بين يديك فأعرضت عنه، وجدت المرأة المغرية لديك فأعرضت عنها، عندها يُدعى زاهدًا، ولكن إذا لا يوجد

لديك مال ولا يوجد لديك مغريات فأعرضت عن المغريات، فهذا زهد الثعلب، قيل: وهل للثعلب زهد، قال: نعم، مَرَّ الثعلب ببستان فيه عنب، فنظر ووجد عنقودًا كبيرًا يكاد يتمزق من كثرة ماء العنقود وكبره، وكأن الثعلب جعل يتلمظ لوصوله لهذا العنقود، ولكنه عالٍ مرتفع، فجعل يثب عليه لعله يصله، فوثب أولًا وثانيًا وسابعًا حتى كَلَّ ومَلَّ وما وصل إلى ما أَمَّل، فقال بعد ذلك: اللَّهُمَّ لا تكتب لنا نصيبًا في الحرام! فصار وصوله إلى العنقود حرامًا بعد أن لم يصل!

ولذلك كان السلف عندهم المال، ولكن الدنيا ليست في أيديهم ولا في قلوبهم، كان بعض السلف يؤتى لهم بالمال من أهل الخير معونة لهم على طلب العلم، فماذا كان يفعل هذا الإنسان غير ما نصنع نحن معشر طلبة العلم، كان يخرج به سريعًا، أن يغيث الناس الذين أصابهم الجوع، أن يفرغ قلبه من وجود المال الذي أصبح في حيزه؛ لأنه إذا وجد في الحيز خمسون دينارًا ماذا نصنع بها، كيف نثمرها، كيف تصبح سبعين، وكيف تصبح تسعين، وكيف تصبح مئة، وإذا صارت مئة هناك عدد أكبر: ألف، وإذا صارت ألفًا هناك عدد أكبر: عشرة آلاف، فابتلي بداء يسمى داء التكميل؛ لأن هناك أناس يطلبون من الله تعالى بأول الأمر ألفًا، فإذا صار عنده الألف قال: الألف قليلة، ويطلبون العشرة آلاف. وهكذا.

كان السلف إذا ورد إليهم مال من أهل الصلاح والفلاح خرجوا فيه عن أنفسهم حتى لا يشغل القلب؛ لأن القلب لا يمكن أن يشغل بشخصين، أذكر لكم أن أحد العلماء ـ كان اسمه أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري ـ، كان يسمى: بحر الحجة، يحفظ ثلاثة عشر صندوقًا، هذا الرجل حِفْظُه هكذا، عنده حفظ عجيب، وهذا يأتي من الصلاح والفلاح والاستعداد، في عنفوان شبابه مر به أن

يكون عنده ما يسرِّي عن النفس نوازع الشباب، فذهب إلى سوق النخاسين ـ هو كان في القرن الرابع أو الخامس ـ، فاستحسن جارية ليشتريها، ثم رجع، فتأخر عن الملك الذي هو من حاشيته، فسأله الملك ماذا أخرك؟ قال: ذهبت إلى سوق النخاسين فوجدت جارية فلم أشترها. فلما علم الملك أنه رغب في الجارية أرسل من حاشيته من اشترى الجارية وذهب بها إلى بيته، فلما رجع أبو بكر إلى بيته وجد الجارية قد جعلت في البيت، وأُعْلِم أنه قد اشتريت له فهي له، فقال لها: اجلسي في الغرفة حتى أستبرئك، وجلس هو يبحث في مسألة علمية قد أشكلت عليه، فوجد قلبه مشغولًا بين المرأة وبين المسألة، فقال لبعض أصحابه: خذ هذه المرأة وأرجعها إلى سوق النخاسين، قد شغلت عليَّ قلبي. فلما أخرجها الرجل قالت: دعني أكلمه بحرفين، فقالت له: أنت رجل ذو مقام ومسموع ومعروف، فإذا أخرجتني ولم أعلم السبب ظن الناس بي سوءًا، فأريد أن أعرف ما السبب؟. قال: لا عيب عندي منك أبدًا، ولكن شَغَلْتِ قلبي، وأنت لست في محل أن تشغلي قلبي عن العلم.

هذا المعنى هو ما كان موجودًا عند السلف، فإذا علمتم أن ابن جرير الطبري عاش عزبًا، حينئذ تفهمتم كيف يكونون، عاش عزبًا، ستة وثمانين سنة في العزوبة، مع العفاف والطهر والزهد، والورع والإمامة في كل شيء، لماذا؟ هل ينظر إلى الزواج أنه مكروهٌ، انظر إلى كتابه يحدثك أن الزواج من أسس الإسلام، ولكنه مشغول متفان محترق بالعلم، لذلك، السلف رضوان الله عليهم كان عندهم احتراق بالعلم فنبغوا.

أما إذا كان على مذهب الإنسان يطلب العلم هكذا، حبة حبة، ويريد أن يكون صاحب قبة! فهذا غير واقع، ولا يمكن أن يكون:

تسألني أم الوليد جملًا   يمشي رويدًا ويجيء أولا

لا يمكن هذا على هذا القرين: أريد أن أطلب العلم على ما أنا عليه، حَظِّي بالزواج كبير، وحَظِّي بالتلفزيون كذلك، وحَظِّي بالراديو كذلك، والمجلات، ومجالس شرب الشاي، والأحاديث واللقاءات والعزومات، وبعد ذلك نفتح الكتاب نقرأ سطرين، وبعد ذلك نطلب من الشيخ اختصار المقرر، فهل يمكن أن يأتي بعد ذلك إنسان يسمى طالب علم؟ لا يمكن.

إذا نظرنا إلى أنفسنا نجد أننا نقدر الأوقات الآن بالدقائق؛ يعني: خمس وأربعون دقيقة للحصة، فخمس تذهب للتفقد وكتابة الغائبين والحاضرين، فيبقى أربعون دقيقة فيها سؤال وجواب وما إلى ذلك، فإذا أُعطِينا في اليوم أربع دروس والله ثقيلة، فإذا نظرنا أن الإمام النووي ﵁ كان يحضر في اليوم الواحد اثني عشر درسًا، لا من دروسنا؛ بل من دروس أهل العلم أهل الوزن والثقل، فكان يحضر اثني عشر درسًا. ويقول ابن جرير رحمه الله تعالى ـ كما يقال في ترجمته التي أشرت لكم إليها يقول ـ: كنا في الري نذهب إلى درس فلان، ثم نرجع إلى درس ابن حميد الرازي نعدوا كالمجانين حتى ندرك درسه.

هكذا كان العلم وطلابه، أما إذا كان العلم وصل إلى باب الإنسان وعتبته فيرى أن العلم هذا رخيص جدًا.

فالسلف ﵃ تحققوا بهذا المعنى لأنهم أدركوا غلاء العلم، فصفت نفوسهم، وتحقق لهم هذا الذي أشير إليه على سبيل الإجمال.

وكان عندهم من جملة العوارض: الحرص، والتأسي، والاقتداء بما يعلمون، فكانوا يتعلمون الشيء ويفعلونه، فكان العلم يطبق بالعمل فيمزج بالسيرة.

أنت، إذا تعلمت دعاء النوم فقلت الدعاء: «**بسمك ربي، وضعت جنبي، وبك أرفعه، إن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عباد الصالحين**»، إذا تعلمت هذا الدعاء وقلته، هذا كفيت همه، فما عدت تجهد ذاكرتك فيه؛ لأنه صار محفوظًا، أما إذا كنت لا تحفظه ولا تعمل به فحينئذٍ يجهدك الأمر.

فكان عندهم العلم يطبق عليه العمل، فكان العلم نصفه أو أكثره عمل، فصار سلوكًا طبيعيًّا، فسهل العلم وكثر، أما إذا كان مجرد محفوظات في الذهن ولا عمل فيه؛ فهذا مجهد للإنسان ومثقل عليه، فكان عندهم هذا المعنى قائمًا وموجودًا، وكان عندهم البعد عن الرفاهية والبطر والبذخ، يعني: كانوا يعيشون على إقتار ويُسر في الحياة، فكان مثلًا طعام الإمام أحمد قوته الأكثر حالًا: الخبز، فلو قدم لطالب العلم في يوم الخبز وحده؟ الله أكبر، وقع منكر من أكبر المنكرات، ما قدموا لنا في هذا اليوم إلا خبزًا! هذا منكر كبير! لا يسكت عليه! يسكت على كل شيء إلا هذا، خبز؟!! فكان عندهم الخبز إذا وفر.

وإبراهيم الحربي رحمه الله تعالى، زاره أحمد بن سلمان النجاد، وقد وقعت لأحمد ضائقة وشدة شديدة، فذهب إلى إبراهيم الحربي يتأسى به، فواساه وآساه وصبَّره، ثم قال له: يا أحمد عندي ذنب فجلة بقيت من الأمس أقوم أتغدا بها، يعني: فجلة قسمها قسمين، أكل جسمها بالأمس ويأكل الباقي اليوم!!!

هكذا إبراهيم الحربي الذي لمَّا مات وأدركه الفقر، وكان عنده بنتان قالت له زوجه: يا إبراهيم، أنا وأنت نصبر على الجوع، ولكن كيف نعمل بهاتين الصبيَّتين؟ قال: ماذا أصنع؟ قالت: تبيع من كتبك! ـ أسهل شي على المرأة التي لا تدري: تبيع من كتبك، وهذا أصعب شيء على العالم؛ لأن الكتب عند العالم خلاياه الحيويَّة في الجسم، لا يمكن أن يتخلى عنها ـ، فقال: أصبريني إلى المساء؛ فصبرت، وفي المساء، إذا داق يدق الباب، قالت: من؟ قال: افتحي الباب وأطفئي السراج. ففتحت الباب وأطفأت السراج، فإذا رجل معه كارة ـ صرة كبيرة ـ، قال: اشتهينا هذا لصغاركم، ثم قال: أغلِقي الباب، ثم قال لزوجه: أصلحي السراج، فأصلحت السراج، فوجدت كارة فيها أنواع من الأطعمة وفيها صرر ذات ثمن، ومعها خمسون دينارًا، فقال: الحمد لله. يعني: ذهبت الحاجة.

فكان إبراهيم الحربي يعيش على مثل هذه المناسبة، يعيش على الفقر الذي هو حليته دائمًا، فما كان عندهم هذا التوسع الذي عندنا اليوم، فيبقى ذهنهم مشدودًا إلى العلم، ولما أصبح إبراهيم الحربي من ليلته هذه كان جالسًا على باب داره، فإذا رجل معه جملان يقودهما فيسأل عن بيت إبراهيم الحربي، فيقول الناس له: أمام، ثم بعد ذلك، ثم قال له شخص: ذاك إبراهيم الحربي على باب بيته، فإذا به يقول: له جملان، لما قال: له الجملان، سأله: من أين هذا؟! قال: من خراسان رجل أرسلهما إليك. قال: من هو؟ قال: حَلَّفني أن لا أقول. وعلى هذين الجملين طعام وورق خراساني، والورَق من خراسان يكون قويًا وناعمًا ومصقولًا، وعند العالم الورَق أغلى شيء ـ في الزمن القديم وفي الحديث ـ، فكان الناس يعيشون على هذه الحياة، الخبز عندهم كثير، إذا كانت هذه

حياة الإنسان، حينئذ تبقى عيشته عفيفة وراضية، ويمكن أن يكون آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر؛ لأنه مهما تولى الأمر وتغير...





الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

فأحمد الله ﷻ الذي جمعني بكم في هذه الأمسية الكريمة وهذا المكان الطيب الجامع لطلبة العلم، الذي تحفه الملائكة بأجنحتها رضاء بما تصنعون إن شاء الله، كما جاء في الحديث الشريف، وإنها أمسية كريمة، نجتمع فيها على التواصي بالحق وبالصبر.

وهذه الأمسية أتحدث إليكم فيها عن شيء لم يكن تَعْيِينُه اعتباطًا، ولا قصده جزافًا، وإنما قصدت به ـ وهو النبوغ عند السلف قصدت به ـ تحريك الهمم، وفتح الأذهان والأفكار، والتعالي بالنفوس الكريمة الأبية إلى منزلتها السامية التي بوَّأها الله إياها بمنزلة العلم.

فمنزلة العلم التي أنتم فيها منزلة كريمة سامية، عالية راقية، وقد يألف الإنسان الشيء، فيرخص عنده ما ألف، وهذه المواهب الكريمة التي آتانا الله إياها ـ من سمع وبصر وقوة وما إلى ذلك ـ، حينما يألفها الإنسان ولا تتكدر عليه لا يرى لها قيمة كبيرة، فإذا تعرض لزوالها أو ضعفها أو إزاحتها عن فائدتها ذكر فضلها، وعرف قيمتها وقَدَّرَها قدرها.

فأنتم بسبب الإلف لهذا الطلب الدائم، من سن الصغر إلى سن الشباب إلى سن المسؤولية، قد ترون أنفسكم أنكم أصبحتم محترفين للعلم احترافًا؛ أي: ترونه كالعادة القاضية على الإنسان بالسلوك دون أن يكون له اختيار أو تحسس بما يسلك، فينسى الطالب منكم أنه يقوم في عبادة ويجلس في عبادة وينام على عبادة، وهو تحفه الملائكة بأجنحتها رضاء بما يصنع، فينسى هذه المعاني وتغيب من نفسه فيهون عليه شأنه، ولكنكم إذا تذكرتم هذا الذي ألمعت إليه عرفتم منزلة طالب العلم عند الله ﷻ وفي هذا الشرع الحنيف.

كان بعض السلف رقيقًا وأعتقه مولاه، فقال: بأي الحِرف أحترف؟ ثم قال: اخترت العلم، يعني: اختار أن يطلب العلم، قال: فما مضى عليَّ سنة إلا وجاءني الأمير ـ أي أمير المدينة ـ زائرًا، فلم آذن له. يعني: كان قبل هذه السَّنَة التي تزين فيها بالعلم رقيقًا مملوكًا منظورًا إليه نظر شزر واستصغار لأنه رقيق مملوك، ولكن بعد أن مضى عليه سنةً من التحصيل والدأب والانتساب لشرف العلم.. «جاءني أمير المدينة زائرًا فلم آذن له»، فأصبح سلطانه فوق سلطان الإمارة؛ لأن سلطان العلم هو الذي يحكم ولا يُحكم.

فأنتم في منزلة سامية، ولكن كثرة صخب الحياة وكثرة الإلف قد تنسي الإنسان وتُغيب عنه هذا المعنى، فأردت أن أُلمع إليه، وأن يكون حديثي إليكم في هذه الأمسية عن أسباب النبوغ عند السلف؛ لأنه في الحقيقة لم تكن هناك رحمة مخصصة للسلف لأنهم سلف يمنحون العلم من الله ﷻ، ولم تكن محنة على الخلف بأنهم يحرمون العلم من الله ﷻ، وإنما كانت هناك أسباب أخذوا بها فوصلوا، وهناك أسباب أخذنا بها فلم نصل، فلذلك حسن أن

أتحدث إليكم وأنتم طلبة العلم ورواد المعرفة وطالبي الخير والهادين المستجدين.

أن أتحدث إليكم عن أسباب النبوغ عند السلف، حتى يدرك الإنسان من نفسه إن كان لديه مجمرة من الإيمان والعزم والقوة يمكن أن يأتي بالعجيب ويأتي بالمفيد ويأتي بالغريب، ولذلك يقول الإمام ابن مالك النحوي الجياني صاحب «الألفية» التي شرحها الإمام ابن عقيل في النحو، يقول في أول كتابه «التسهيل» من كتب النحو المنثورة، وهو كتاب جيد كبير ممتاز في علومه وتحقيقه، يقول هذا الإمام ابن مالك رحمه الله تعالى هذا المعنى الذي ألمعت إليه: «وإذا كانت العلوم منحًا إلهية، ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يُدَّخر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين، نعوذ بالله من حسد يسد باب الانصاف، ويصد عن جميل الأوصاف».

فإذن؛ مِنح الله ﷻ ليست مقصورة على قرن دون قرن، ولا زمان دون زمان، ولا إنسان دون إنسان، وإنما ينبغي التعرض لها، فمن تعرض لنفحات الله ﷻ نالها، ومن أعرض عنها أعرضت عنه، فلذلك كان حديثي في هذا الموضوع لعل النفوس الطيبة الكريمة تتأثر به ويكون منه الخير والفضل إن شاء الله.

أولًا: أتحدث عن أسباب النبوغ عند السلف:

وهذا الموضوع، لم يكن فيما أعلم مطروقًا من قبل أو مدروسًا، ولذلك وسأجتزل أنا في بعض العناصر التي رأيتها تحقق هذا النبوغ في هؤلاء الأئمة الذين عرفنا منهم حسن السلوك وقوة العلم وسداد الرأي وعمق الفهم، والبروز الظاهر بالحجة على الباطل، حتى كانوا قدوة ـ شئنا أو أبينا، أو شاء أعداءنا أو أبوا ـ، فخضع لهم الصديق والعدو بالفضل، والفضل ما شهدت به الأعداء.

فهؤلاء السلف ﷺ كان لهم من نبوغهم تاريخ طويل، وكان لهذا النبوغ أسباب كثيرة.

ما هو النبوغ؟

النبوغ إذا أردنا أن نصفه بألفاظ قصيرة، نقول على سبيل التقريب لمعناه: هو أن يحصل الإنسان على علم كثير في وقت قصير، مع الحذق والفهم والاتقان وحسن التحمل والأداء...

فحينئذٍ يحمل العلم، وهذا العلم الذي يحمله أسرعَ ما يكون تولُّدًا، يعني: إذا حَمَل نُكْتَة من العلم أسرع ما يكون أن تتولد منه فكرة، ثم فكرة من هذا الذي حمل، فيَفْهَم ويُفْهِم ويستنبط ويعلن، وهناك أناس دقت عليهم البلادة، تدق على أفهامهم دقًّا بمطرقة الإفهام والحديد فلا يفهمون إلا كما يقول الشاعر:

أقول لهم عَمْرًا فيسمعه خالدًا فيكتبه زيدًا فيقرأه بكرا

فهؤلاء السلف الذين كانوا على هذه المنقبة العظيمة، كانوا يحصِّلُون العلم الكثير الوفير في الوقت القصير، مع الحفظ والفهم والدقة وحسن التحمل وحسن الأداء؛ لأن الإنسان قد يتحمل كثيرًا، ولكن إذا أراد الأداء قد يعجَز فلا يملك من الأمر شيئًا يُعْجِم، يريد أن يُعْرِبَهُ فيُعْجِمَهُ، هذا الذي أريد أن أتحدث عنه.

هذا النبوغ له أدوات، هذه الأدوات منها ما هو في فطري ومنها ما هو اكتسابي.

الفطري، مثلًا: قوة الحفظ والفهم وسعة العقل، واستنارة المدارك، هناك إنسان تعطيه كلمة من المسألة فيفهم آخرها رأسًا، وهناك إنسان يحفظها حفظًا، وهناك إنسان يعقل بينه وبينها، يعني: يعقل عنها فما يفهمها، وكان في السلف الفهم أكثر من الخلف،

وهذا ستأتي أسبابه، وكان في السلف الحفظ أكثر من الخلف، وكان في السلف كثير من الفضائل التي سنتحدث عنها، ولكنها لا نراها في الخلف، سبب ذلك: أن الفطر التي كانت تتحمل العلم كانت متصفة بصفات تجلب العلم وتجذبه وتثبته وتنوره وتقدمه زادًا شهيًّا طيبًا للناس، أما الناس فالأمر كما تعلمون، ولا حاجة إلى شرح ما يُعلم، هذه المواهب الفطرية.

هناك مواهب اكتسابية، كيف يمكن اكتسابها؟

يعني: قد يكون الإنسان في ذاته بليدًا وخُلِق بليدًا، والله ﷻ فضَّل بعضنا على بعض في الرزق والمواهب، وفضَّل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعضهم على بعض، ففَضْل الله ﷻ في عباده هكذا، وهذا تمام الحكمة والفضل على العباد من الله ﷻ، فقد يكون الإنسان بليدًا ولكن يواظب ويواظب حتى يكسر حجرة الغموض والبلادة ويصبح فهيمًا، وقد تنكسر هذه الصخرة في مدة قليلة أو كثيرة، ويتفجر النبوغ لأن النبوغ قد يأتي في سن متأخرة أو في سن متقدمة وقد يكون الإنسان منحرفًا عن النبوغ لأنه أخذ غير اختصاصه وغير ما يلائم ذاته ومواهبه وميوله، فينحرف به الأمر فيخرج من دائرة البلادة أو التوقف إلى دائرة النبوغ، وهذا كثير.

أضرب لكم مثالين اثنين:

المثال الأول: سيبويه الذي يعرف بأنه شيخ النحو رحمه الله تعالى:

هذا الإمام في أول نَشأته لم يكن طالبًا لعلوم العربية وإنما كان طالب حديث شريف، يحفظ الحديث ويتلقاه وينقله لخلف، ولكنه في بداية نشأته كان يقرأ على شيخه حماد، فقرأ حديثًا ولحن فيه، وهذا الحديث ـ على ما أحفظه بسرعة ـ: يقول فيه النبي ﷺ:

«ليس أحد من أصحابي إلا وهو لو شئت لأخذت عليه، ليس أبا الدرداء».

أبو الدرداء ﷺ كان مشهورًا من عقلاء الصحابة ﷺ، هو ومعاذ بن جبل، فكان الصحابة يقولون: حدثونا عن العاقِلَيْن أبي الدرداء ومعاذ بن جبل.

فيقول الرسول ﷺ مزكيًا أبا الدرداء: **«ليس أحد من أصحابي إلا ولو شئت لأخذت عليه ـ يعني: أخذت عليه ـ، ليس أبا الدرداء»** فقرأ سيبويه: «ليس أبو الدرداء»، دون أن يفهم الفرق بين هذا وذاك، فزجره شيخه حماد على اللحن وقال له: «غلطت، ليس أبا الدرداء»، وصاح به، فتأثر، فقال له: «لماذا: ليس أبا الدرداء! لأنه كذا»، قال: «لأطلبن عِلْمًا لا يلحنني فيه أحد...». فتحول ليطلب العربية حتى يرجع إلى الحديث فيتعلم، فلما ذهب إلى طلب العربية تبينت مواهبه ونبوغه، فأسس هذا الذي تقرؤونه سهلًا مسوغًا طيبًا شهيًّا، أسسه بعقله وذهنه، ومات دون الخامسة والثلاثين من العمر.

هذا الإنسان عنده قدرة في إدراك اللفظ العربي وتنزيله منزله، ومعرفته جرسه، وكيف يتنزل، وكيف يصح، وكيف يتولّد منه، وكيف يُولَّد، وكيف يطلب، وكيف يحفظ، وكيف يعبر عنه؛ لأن العلم، قد يفهم الإنسان الشيءَ ولكن يتبلم عن التعبير؛ لأنه قد يحسُن في صدره مسجلًا، ولكن بعد ذلك لا يستطيع النطق، فكان عنده من القوة أن يسمع ويجمع ويهضم ويطعم، فأطعم هذا الزاد الذي تؤلَّف به المؤلفات كلها بسبب أنه أتقن علم العربية وانكشف نبوغه في العربية لا في الحفظ الذي يعتمده علم الحديث الشريف.

المثال الثاني: أبو يوسف القاضي تلميذ أبي حنيفة ﷺ:

كان في صغره طفلًا صبيًّا يتردد إلى المسجد كعادة أبناء

المسلمين، فكان يجلس في حِلَق المسجد في الكوفة عند أبي حنيفة وغيره فيَسْمَعُهم يقرؤون الحديث والفقه وما إلى ذلك، فيجلس من حلقة إلى حلقة.

بعد ذلك استطاب له أن يجلس في حلْقة أبي حنيفة؛ لأنه وجد هذا الذي يسمعه من أبي حنيفة يدخل إلى قلبه بسرور ومحبة، ويستنير في قلبه، وهو الفقه، فجلس إلى أبي حنيفة.

وكانت أم أبي يوسف فقيرة مملقة، فكانت تأخذه إلى القصار الذي ينظف الثياب، فكانت تأخذه إلى القصار ليشتغل عنده وتنتفع بأجرته، ولكنه كان يهرب إلى مجلس أبي حنيفة، فجاءت إليه فوجدته في المجلس - أولًا وثانيًا وثالثًا -، فبعد ذلك جاءت وأخذته، فعتب عليها أبو حنيفة رحمه الله تعالى، فقالت لابنها: إن أبا حنيفة زيته كثير، ونحن نريد الأكل، ثم قال أبو حنيفة لها: دعيه - يا حمقاء -، فإنه سيأكل الفالوذج بإناء الفيروزج؛ يعني: إذا بقي على المواظبة هذه، سيأكل أطيب الطعام في أفخم الإناء. فقالت له: إنك شيخ قد خرفت وغاب عقلك، نحن نبحث على الخبز والأكل وأنت تقول: يأكل الفالوذج بإناء الفيروزج!!

فتعهده أبو حنيفة ﵁ بالنفقة، فأصبح يلازم مجلس أبي حنيفة، ثم كبر وصار من المتعلمين الأقوياء في مجلس أبي حنيفة.

وكان من عادة أبي حنيفة أنه يجادل ويناقش في المسألة مع طلَّابه كأنه في صخب، فكان هكذا في مرة من المرات، عرض أبو حنيفة المسألة وعرض أدلتها وشقق المسألة فيها، فأبو يوسف أخذ جانبًا من هذه الآراء التي عرضها أبو حنيفة وتمسك بها وأقام الحجة عليه، فكانت في صورته أظهر مما اختاره أبو حنيفة، فأعجبته نفسه وتبين هذا في وجهه، فقال له أبو حنيفة رحمه الله تعالى: كنت

بليدًا فأخرجتك المواظبة؛ يعني: لا تعجبك نفسك، إنما أنت من هذا المجلس.

فالشاهد: أنه كان بليدًا، ولكن المواظبة تُنْبِت وتُثْمِر.

قال الحائط للمسمار: لِمَ تشقّني؟ قال: سل من يَدُقُّني.

أَخْلِق بذي الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وإن كان الإنسان في فطرته معه بلادة، فإنّ المواظبة تأتي بأفضل الثمرات، ولا يصبح الإنسان متكلًا على ذكائه فيهمل ولكن غير الذي لا يتكئ فيكتب ويحفظ ويجمع فيكون في محصلته أنبغ من الذي يعتمد على ذكائه.

فلذلك النبوغ من حيث هو ـ كما ذكرت ـ يمكن أن يكون له عاملان، فأحدهما فطري وهبي من الله ﷻ، والآخر اكتسابي تحصيلي، كما ذكرت في المثالين السابقين.

هذا ما يتعلق بأمر النبوغ من حيث هو موهبة أو عطاء من الله ﷻ.

هذا النبوغ لا بد له من أسباب تحفه حتى يصل الإنسان إليه.

هذه الأسباب سأذكر بعضها على سبيل الإيجاز والإجمال، ولا أقصد بها الترتيب الذي هو ترتيب لازم عددي ولكن أُقرِّب فيها التقريب المناسب فيما أظن وأجتهد.

أول أسباب النبوغ بالنسبة للسلف رضي الله عنهم

قربهم من عهد رسول الله ﷺ

وفي الصحابة خاصَّة معاشرتهم وملازمتهم ومصاحبتهم للنبي ﷺ

فهذا سبب كبير؛ بل هو من الأسباب التي تَقْدَح الزِّناد وتخرج الإنسان من الظلمة إلى النور، وتخرج منه العجائب التي لا يُقَدَّر

قدرها، فلولا نور الإسلام وشمس هداية النبيّ عليه الصلاة والسلام ما ظن بعمر بن الخطاب ـ ومن كان على شاكلته قبل الإسلام ـ أن يكون له هذا الذكر وهذا الخير العميم الذي أجراه الله على يديه من أول يوم في الإسلام إلى يومنا هذا، ومن أين جاءه هذا الخير؟ من صحبة سيد الخير ومعلمه رسول الله ﷺ.

فأول أسباب النبوغ في السلف ﭫ قربهم من شمس الهداية ورسول الإسلام نبينا عليه الصلاة والسلام، فكان لهم منه تعليم في كل حال ـ من قول، ومن فعل، ومن تصرف، ومن حركة ـ، وهذا التعلم بمجموعه يفتح للإنسان النبوغ؛ لأن النبوغ يحتاج إلى مؤهلات ـ مثل الطعام، كيف يتم حتى تقول فيه طيب؟ يتم باختيار أصل مادته وغسلها وطبخها وإعطائها مقاديرها من كل ما يتصل بها من ألوان من الطعام: من الدسم أو الملح أو البهارات أو ما إلى ذلك، ثم طبخها ورفعها على النار وما إلى ذلك، ثم سكبها في إناء شهي، أما لو سكبتها في إناء منَفِّر فما أطيب الطعام وما أسوأ الإناء.

فإذن، قد شهد الصحابة ﭫ رسول الله ﷺ عالمًا معلمًا هاديًا مهديًا ـ في كل شيء وكل أمر: رسول الله ﷺ ـ، سمتٌ صحيح وهدي نصيح، فما كان منه ﷺ إلا الخير، فلذلك أكثر أصحاب رسول الله مصاحبة له أعلمهم بالشريعة وأوفاهم بها معرفة وهديًا، وذلك سيدنا أبو بكر ﭬ، فأعلم الصحابة أبو بكر ﭬ؛ لأنه أول من أسلم من الرجال، وأكثر الصحابة صحبة لرسول الله ﷺ، وقد آتاه الله المواهب الفطرية والمواهب الكسبية، فكان خليفة لرسول الله ﷺ بحق وصدق، وهذا الذي نعيش فيه اليوم بعد فضل الله ﷻ نستظل بفضل أبو بكر ومواقفه المشرِّفة حينما اهتز

الإسلام وراجت في الناس الردة، ولكن أبا بكر رضي الله عنه وقف لها فهزمها وأماتها وأقبرها إلى غير رجعة، وعاش المسلمون في صحيفة أبي بكر رضي الله عنه، وجزاه الله عنَّا خيرًا.

هذا إذن السبب الأول: قرب السلف رضي الله عنهم من عهد النبي ﷺ وحياته الشريفة.

السبب الثاني من أسباب النبوغ عندهم رضي الله عنهم:
ما عبر عنه الشعبي: العقل والنسك

العقل: أمر معروف وكلنا يتصف به.

النسك: العبادة.

يعني: أن يجتمع في محصِّلِ العلم وطالبه هذان العنصران الأساسيان: العقل والنسك.

فالعلم بالعقل يتفتح، وبالنسك يستنير ويتثبت ويظهر أثره، أما إذا كان عقل بلا نسك فحينئذ مستشرق ملحد، وإذا كان نسك بلا عقل، فعابد جاهل.

قال عيسى الحناط: قال الشعبي: «إنما كان يطلب هذا العلم مَنْ جَمَع النسك والعقل، فإن كان عاقلًا بلا نسك قيل: هذا لا يناله، وإن كان ناسكًا ولم يكن عاقلًا قيل: أمر لا يناله إلا العقلاء». ثم قال الشعبي: «فلقد رأيت اليوم يطلبه من لا عقل له ولا نسك».

إذن، عماد هذا العلم: العقل والنسك؛ لأن العلم يحتاج إلى المحراث، وهذا المحراث هو العقل، والعلم يحتاج إلى مرآة، هذه المرآة هو العمل. النسك: العبادة.

أما إذا حفظ الإنسان العلم دون أن يقوم به، فهذا إنسان يقوم مقام التمثال لا يؤدي المهمة، ولذلك لما كانوا يشهدون رسول الله ﷺ يشهدون منه العقل والنسك جميعًا: عبادته مُعَلِّمة، أقواله مُعَلِّمة، سلوكه... فلذلك انطبعوا برسول الله ﷺ من غير إرادة ولا شعور، وكيف إذا كانت الإرادة تصحب هذه الصحبة، فكانوا يتأسون به ﷺ في كل حركة وسكون حتى يفعلون ما يفعله وإن لم يدركوا معناها.

فإذن، العنصر الثاني في أسباب النبوغ: العقل والنسك.

العنصر الثالث

وكان حقه أن يكون الثاني ولكن تقدم نظري فقرأه الثالث

صفاء الاعتقاد وسلامة العقيدة من الأفكار المعارضة والدعوات المناوئة

الإنسان حينما تستقر عقيدته على الحق الذي هو الإسلام ولا يناوؤها مناوئ، تبدأ تتفتح وتعطي ثمراتها، مثل الإنسان الذي يغرس الشجرة في موضعها من الشمس والحر والبرد وفي تربتها المخصبة لها، ثم يتعهدها بالسقيا دون أن تنازعها الإعصارات والجفاف والثلج وما إلى ذلك من المؤذيات؛ فتثمر وتنبت، أما إذا كان دائمًا في هوجاء وأخذٍ وردٍّ لا يستقر له حال، فشأنه يبقى بين الأخذ والرد والكر والفر، فلا يستريح له نبوغ ولا يتحقق له تقدم؛ ولذلك الحضارة ـ من حيث هي حضارة ـ لا تنبت ولا تثمر إلا في ظرف مستقر هادئ وادع مطمئن، أما إذا كان غير مطمئن فلا تأتي حضارة.

تصوروا لو أننا في هذه الجلسة وشيء من المزعجات مثلًا نسمعه، فالأجسام هنا والأفكار هناك، هذا أقل ما يمكن، أما العقل والفهم فهو عند الله ﷻ، فلذلك كان صفاء العقيدة وسلامة الاعتقاد

وسلامة العقيدة من المناوئات والدعوات المعارضة واستيلاء الحق على العقول والقلوب واستقرار النفوس بالإسلام عقيدة ودينًا وشريعة ومنهاجًا جعل الناس ما يفكرون إلا بالإسلام، فلذلك يبدعون ويطمئنون ولا منازع، وحيث لا منازع تستطيع أنت أن تثمر وتعمر، أما إذا كان هناك مناوئ ومخادع ومقاتل ومزاحم فيصعب عليك هذا ويشتت عليك الفكر، فكان هذا العامل مؤثرًا في نبوغهم، فكانوا في ظلٍّ مستقرٍّ في أمر الاعتقاد وسلامته وصفائه.

هذا أمر ثالث.

الأمر الرابع من أسباب النبوغ عندهم: انحسار القدوة في الكتاب والسُّنَّة وهدي رسول الله ﷺ وأصحابه الراشدين رضي الله عنهم

معنى هذا: أن نفوس الناس كانت تتوجه إلى شخصيةٍ هي كل شيء عندها، هي مقياس كل فضيلة، هي ملتقى كل خير، ما تتحول يمينًا أو يسارًا، فالإنسان في هذا يكون في طمأنينة فيفرع ويثمر.

فمقياس العظمة عندهم هو رسول ﷺ، كيف يأكل نأكل، كيف يشرب نشرب، كيف يفعل نفعل، كيف ينام ننام، كيف يمشي، كيف يتحدث وهكذا، فكانوا يتأسون برسول الله ﷺ في كل حركة وسكون، وهذا التأسي يثمر الخير؛ لأنهم يقتدون بمعلم الخير ﷺ، وكل حركة وسكون من رسول الله ﷺ مدعاة الخير الأكبر والأتم؛ لأن رسول الله ﷺ أرسله الله نموذجًا حيًّا ليفسر هذه الشريعة ويشرح هذا القرآن الكريم بهديه وسلوكه وسنته القولية والفعلية والتقريرية، بكل أفعاله وأقواله وإقراراته شرحت كتاب الله عز وجل.

فإذن، من حيث كان انحسار القدوة قائمًا برسول الله ﷺ وأصحابه الذين شهد لهم بالهداية والرضوان ﷺ، فكان هذا أيضًا من عناصر النبوغ؛ لأن الإنسان حينما يتوجه إلى جهة واحدة ولا تأخذه الأهواء يمينًا وشمالًا ويقترب به حبل الاقتداء فيبقى مستقرًّا، وعنده الخير المقدم في كل حركة وسكون.

فأنتم إذا نظرتم أن إنسانًا بُيِّنَ له كيف يأكل وكيف يشرب وكيف ينام في كل شيء، يقدم له هذا بمقادير دقيقة وعلى ألوان مختلفة، فهذا إنسان مُرَفَّه في الحياة، فلو تصورنا هذا المادي، لو أن إنسانًا لديه طبيب خاص، ومعلومٌ أن الطبيب الخاص هو طبيب الأسرة، دائمًا بحضرته طبيب يذكر له كيف يأكل الطعام المناسب في الوقت المناسب بالكمية المناسبة، وإذا وجد من جسمه حرارة أو برودة أعطاه ما يعدل المزاج، وإذا وجده في ضعف أعطاه علاجًا أو مقويًّا أو ما إلى ذلك، كيف نجد هذا الإنسان؟ يكون محفوفًا بالعناية والرعاية في كل ما يفعل في أمر الصحة، ويكون مطمئنًا إلى صحته وأنها في عناية ووقاية تامة. كيف نتصور هذا ـ وهذا مثال جزئي يسير ـ، نتصور الذي يتمسك بهدي النبي ﷺ ويقتدي به في كل حركة وسكون هو أهدى وأكثر طمأنينة وصلاحًا في جسمه وقلبه وعقله وسلوكه من هذا الذي قد عُني أو حَظِي بطبيب خاص يحدد له طعامه وشرابه ومنامه ومزاجه.

فالصحابة ﷺ والتابعون وتابعيهم كان ينحصر اقتداؤهم برسول الله ﷺ، فيتمسكون بالاقتداء برسول الله ﷺ وبعمل الصحابة ﷺ على أتمّ فضيلة؛ لأن الصحابة ﷺ شاهدوا رسول الله ﷺ فكانوا أعلم الناس بحال رسول الله ﷺ، وهذا ما حقق فيهم الروح الطيبة التي إذا استقبلت العلم الصالح أثمرت؛ لأن هذا

العلم عنده ذوق وعنده شم لرائحة صاحبه؛ يعني: العلم الطيب لا يثمر إلا في جسم طيب، أما إذا كان الإنسان عنده طيب وليس جسمه طيبًا، فما أقبح الطيب على الأناس المكروهين أخلاقًا وسلوكًا، فلذلك كانت سيرتهم الشخصية طيبة، فلما جاءها الطيب الإضافي الكسبي وهو العلم أثمرت وأزهرت وأعطت أطيب مثال.

فإذن، السبب الرابع في أمر النبوغ عند السلف ﵃: انحسار القدوة بالكتاب والسنة وهدي النبي ﷺ وأصحابه الراشدين المهديين ﵃.

السبب الخامس في أسباب النبوغ عند السلف ﵃: نقاء المجتمع من الفساد الأخلاقي

هذا أمر يؤثر على السلوك يؤثر على الخاطر يؤثر على القلب، يؤثر على الجوارح، يؤثر على الهواء الذي نشمه، يؤثر على الورق الذي نكتب عليه، قد تقولون: الشيخ قد أغرق في الخيال وسبح في الفضاء، ولكني لا أعرف السباحة في الفضاء ولا الخيال عند الشعراء، ولكن أتكلم على حسب ما أعلم.

هذا، سلامةُ المجتمع أو نقاؤه من فساد الأخلاق يؤثر على السلوك، فأنت حينما يكون في جوارك إنسان صالح وجار طيب عابد زاهد عالم منصف ورع مؤمن، وهكذا أنت عنده، تتعاونان على الفضيلة والخلق الحسن، ويثمر عندكما بالتباري، تتباريان من حيث لا تعلمان ولا تريدان، وإما إذا كان في جوارك إنسان يفسد عليك ليلك أو نهارك أو يفسد خاطرك أو قلبك، فإذا أردت أن تكتب كانت المشهيات والملهيات تأخذ عليك شعورك وإحساسك

وفهمك، فحينئذ يجرك الشيطان إلى المعصية، أو التفكير فيها أو القرب منها أو الاختلاس فيها فيسرقك من نفسك، أما إذا كنت في بحبوحة صالحة طيبة لا يسرقك الشيطان وأنت في عين الرحمٰن، فأنت في روح وريحان وجنة نعيم.

فكان الجو الاجتماعي في السلف ﷺ نقيًّا صالحًا طيبًا، فلذلك ساد النبوغ.

والآن، إذا ضربت لكم مثلًا: أنتم في هذا المحيط الذي أنعم الله عليكم به، وهو مساكن الطلبة، ترون أنفسكم في محيط محفوظ، ولو كنتم منتشرين في الشوارع أو الأحياء، فجاء بجواركم أناس ليسوا على المزاج، وليسوا على التقوى، وليسوا على الجادة، لا بد أنكم تنزعجون في أنفسكم، وقد تتأثرون، وقد تنحرفون، وقد تُغْلَبون، فتسرقون عن دينكم، وأنتم تطلبون العلم، فالإنسان قد يسرق عن الصلاح وهو يطلب الصلاح؛ لأنه قد يضعف فيستقوي الشيطان عليه فيغلبه، ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، والشيطان كيده عظيم وكيده شديد، فلذلك لما كان السلف ﷺ جوهم الاجتماعي نقيًا من فساد المجتمع، حقق لهم هذا النقاء حسن النبوغ، ويسر لهم السلام والتقدم.

وأما إذا كان المجتمع ملوثًا بالفساد أو محارَبًا بالفساد أو مغزوًا بالفساد لإفساده، فحينئذ يتعوق النبوغ، فإذا أردت أن تأمر بالمعروف أو تقوم بالخير تجد الأنظار تزدريك، تنظر إليك أنك رجعي، أنك كذا؛ فتتقاصر الهمة ولا تجد على الخير أعوانًا.. والخير يقوى في نفس الإنسان إذا وجد الأعوان له.. أما إذا قل النصير وفقد المعين وأردت أن تأمر بالمعروف فلا تجد صوتًا ولا نظرًا يؤيدك، فما أسرع ما تنحسر همتك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛

لأنك لا تجد من يستجيب، وتجد الأنظار تتقحمك وتزدريك: ما هذه الرجعية، في وجهٍ لحية!

طبعًا لن أتكلم عمن أخذوا بالسنة والواجب، أما من ترك السُّنَّة والواجب فليس كلامي لهم.

يعني: إذا كنت أنت طالب علم وقمت بما يقتضيه منك العلم ـ أنك ملتح متسنِّن متكامل آخذ بالقدوة الكاملة، وهي القدوة برسول الله ﷺ ـ، فكنت ذا لحية؛ ينظر إليك بعض الناس اليوم بأنك على وجه من التأخر والتخلف، وأنك قديم في هذه السحنة وفي هذا المظهر؛ فهذا يعوقك.. أما إذا كنت في مظهر غلبة الخير على الشر هي القائمة تجد كل شيء بجوارك يدفعك إلى القوة، يدفعك إلى الأمام، فحينئذٍ، إذا مر بك الضعف لا تبالي ولا تتأثر.. وهكذا كان مجتمع السلف ﷺ مجتمعًا نقيًّا من فساد الأخلاق؛ فعاشت فيهم الفضيلة وتداعوا إليها، فلذلك تفننوا بالخير والإصلاح والإبداع والبذل تفننًا عجبًا.

إذا ذكرت لكم مثلًا من تفننهم في الخير أو في البذل: الأوقاف الإسلامية التي هي معروفة لكم لما بدأها السلف ﷺ، والنبي ﷺ بفعله والصحابة بأفعالهم، مشت ثم اتسعت، ثم اتسعت فلما اتسعت الخيرات فيها تفنن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين حتى وصل الأمر إلى التفنن العجب في الوقف الخيري الذي يراد به الخير.

ما المقصود من هذا؟

المقصود: أنهم صاروا يتبارون بالخير، فلما ضاق نطاق الخير جعلوا يقفون على الحيوانات، على القطط على الهرر، على أي

مناسبة، على لباس يوضع في الطرق لمن يمر من الناس فيبرد في الشتاء، كانوا يذهبون إلى الطرق، المنازل، المحطات، يقفون فيها اللباس المدفِّئ، حتى إذا مر أناس في الشتاء وأصابهم البرد يستدفئون فيهم.

هذا تفنن، يتصرفون في هذا، حتى إذا استوفوا هذه الناحية تفننوا في غيرها، وقفوا على عيادة المريض.. إذا كان في الحي مريض وقفوا على شخصين اثنين وقفًا ماديًا، يكونان - هذان الشخصان - من أفضل أهل الحي سمعة وسمتًا وهديًا ومحبوبية؛ يزوران المرضى ليخففا عنهم ألمهم؛ لأن زيارة الإنسان المحبوب للمريض تنسيه المرض وترفع معنويته وتظهره بمظهر الصحيح وتغيِّب عنه الألم، وفي هذا تنتعش القوة الفاعلة فيه فينكسر المرض، أما إذا ذهب الإنسان للمريض وقال له: أوص! فقد مات قبل الإيصاء، فلذلك تفنن السلف ﷺ ففعلوا هذا بالتسابق بالخيرات.

اليوم، انحسر هذا المعنى، فأصبح الأمر على العكس، أو كما تعلمون.

فإذن، لمّا يكون المجتمع نقيًّا من فساد الأخلاق تتبارى الهمم في الفضائل، وأما إذا كان المجتمع ملوثًا بفساد الأخلاق أو مغلولًا بفساد الأخلاق تتبارى الهمم في كسب الرذائل، والشواهد على هذا معلومة معروفة مشهودة منظورة:

وحذف ما يعلم جائز كما تقول زيد بعد من عندكما

هكذا قال ابن مالك رحمه الله تعالى وجزاه الله عنا خيرًا، فما نحتاج إلى غيره، هذا السبب الخامس.

السبب السادس:

شيوع الصلاح والتقوى والزهد والورع فيهم

الصلاح والتقوى، شائع، رجال نساء، عمال علماء، جهال حكام على وجه كامل.

الصلاح والتقوى والورع على مراتب ومنازل، ولكنه هو الأصل، حتى إن بعض السلف كان عنده جارية فباعها واستغنى عنها، باعها من قوم آخرين، فلما ذهبت إليهم وكانت تصلي قيام الليل فلم تجد أهل الدار فصفقت لهم، فقالوا: ماذا؟ طلع الفجر؟، قالت: لا، قرُب الفجر قوموا لقيام الليل. قالوا: حتى يطلع الفجر، فسكتت وصلت، ثم لما كان النهار استأذنتهم ورجعت إلى بائعها الأول، قالت له: لقد ظلمتني! قال: لماذا؟ قالت: بعتني من قوم لا يقومون الليل.

هذه الجارية ليست طالبة علم، وليست رابعة العدوية، جارية من الناس.

فكانت السُّرُج والبيوت قبل الفجر منوَّرة، وبعد العشاء معتمة، عكس اليوم؛ لأن الذي يقوم أول الليل لا يستطيع أن يقوم آخره، والذي ينام على الملهيات لا يقوم على العبادات، هذا أمر طبيعي لا يحتاج إلى بيان.

فلذلك، إذا قمت آخر الليل وجدت الأنوار والشموع والمساجد قائمة، كأنها ليلة عيد، والناس فيها يمشون إلى المساجد ويقرؤون القرآن، وقال الله، قال رسوله، حدثنا فلان، حدثنا سيبويه.

العلم قائم في المساجد دائمًا، لماذا؟!

ما كان عندهم أن يسهروا في الليل ويقتلوا نشاطهم وقوتهم وصلاحهم بأيديهم، ثم بعد ذلك يقولوا: قال الله، قال رسوله! قال الله، قاله رسوله، فلا تجاوز حناجرهم.. أما إذا كان ممهد لها، تدخل في قلوبهم فتخرج بأيديهم وأعمالهم وسلوكهم فترشح على الدنيا كلها.. أما إذا كانت لا تجاوز حناجرهم فهذا شيء يسقط حيث يقع، لا يجاوز غيره.

فهذا أمر كان في السلف: الصلاح والتقوى والورع.

أذكر لكم بعض الحوادث في هذا الجانب:

جاء في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي رضي الله عنه:

قال عبد الصمد بن سليمان بن أبي مطر: بِتُّ عند أحمد بن حنبل، فوضع لي ماء ـ قد يحتاج إلى الماء بالليل، طبعًا ما كان الماء بالأنابيب ميسرًا ـ، فلما أصبح وجدني لم أستعمله، فقال: صاحب حديث لا يكون له ورد في الليل؟!! قال: قلت: أنا مسافر، قال: وإن كنت مسافرًا، حجَّ مسروقُ فما نام إلا ساجدًا!.

مسروق بن الأجدع الكوفي رضي الله عنه، حجّ من الكوفة إلى مكة المكرمة، فما نام إلا ساجدًا على الرحل! لأن العبادة عنده أصل، طعامه وشرابه ولذاذته فيها، ما يصلِّيها قصرًا وبالصياح الشديد وبإغلاق الدكاكين، لا؛ بل يصلِّيها متزودًا، هذا الشخص المضاف.

أما المضيف فأحمد بن حنبل رضي الله عنه كان ورده في اليوم والليلة ـ قبل أن يضرب في فتنة خلق القرآن مع تحديثه بالنهار وتعليمه وفتاواه وإرشاده للناس كان ورده ـ من الصلاة: ثلاث مئة ركعة، لو قلنا لبعضنا: صَلِّ هذه الأعداد، لقال: ما هذا العذاب الشديد؟

ما هذه العقوبة؟ أيش هذه الأعمال الشاقة التي رميت علي؟ بأي جناية فعلتم هذا؟ بأي شيء وجهتم هذا الأمر الشديد؟!

كان ورده: يصلّي في اليوم والليلة ثلاث مئة ركعة، ثم بعد أن أصيب بمسألة خلق القرآن وخلعت يداه وأصيب جسمه وضعف كان يصلِّي في اليوم والليلة مئة وخمسين ركعة.

ولم يكن هو فردًا وحيدًا نسيج وحده في هذا بل كان عامَّة السلف هكذا، ولكن نقل لنا عن أحمد ولم ينقل عن غيره، لأنه كان يحفّه أناس ينقلون، ولكن هذا كان عند غيره، كثيرين، كان كثير منهم يصلِّي الصبح بوضوء العشاء؛ يعني: ما ينامون الليل.

كان الحسن بن صالح وأخوه الحسين وأمهما ثلاثة يقومون الليل كُلَّه أثلاثًا بالقرآن الكريم، تقوم أمه ثلث الليل، ثم يقوم أخوه ثلثًا، ثم يقوم هو ثلثًا، فلما ماتت أمهما قاما بالليل كله، فلما مات أحدهما قام الذي بقي منهما بالليل كله.

قد تجدون هذا عملًا شاقًّا صعبًا ولكنه لذيذ باستدامة الإنسان له، ويصبح الشاق فقدًا؛ لأن مَن أَلِف هذا الشيء عند فقده يرى صعوبة، ومن وجده وجد الراحة والسرور.

أضرب لكم مثلًا: لو أنكم التزمتم بقراءة القرآن الكريم كل يوم جزءًا، لا بد بعد مدة ـ من شهر أو شهرين ـ إذا فاتكم قراءة القرآن صباحًا أو مساء ما قرأتم في ذلك اليوم تشعرون أن هناك شيء مفقود منكم، أيش هذا الشيء؟ اليوم أجد نفسي مُضَيَّق مُكَتَّف مُرَبَّط! ما هو السبب؟ هو: هذا الغذاء الذي ألفته في شهر أو شهرين، فإذا ألفته في العمر فما أشد فراقه عليك، فكان السلف يألفون العبادة كأنها غذاء؛ بل كان ابن تيمية ـ كما يقول ابن القيم ـ لما كان في السجن يقول: هذه طُعْمَتي، من بعد الفجر إلى الضحى

العالي وهو يقرأ القرآن ويستغفر ويسبح ويسرد الأحاديث، فيقول: هذه طعمتي، فطوري، غذاء، لأن الإنسان يشعر بذلك بالغذاء، هذا المعنى: كثرة العبادة والصلاح والورع، هذا جعل فيهم النبوغ وهيأ فيهم الخير العظيم.

هذا المثال ذكرته لكم: خبر آخر عن الإمام أحمد: وقال أبو عصمة بن عصام البيهقي: بت عند أحمد بن الحنبل، فجاء بالماء، فوضعه، فلما أصبح نظر إلى الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله، رجل يطلب العلم ولا يكون له ورد في الليل!!!

طبعًا، المخاطبين طلابُ علم، أمر عجيب مخالف للحقيقة والطبيعة والأصل، هذا المعنى إذا حقق فيهم ـ المعنى الذي ذكرت ـ: شيوع الصلاح والتقوى.

السبب السابع:
الحرص الدائم على التأسي والاقتداء بالسمت النبوي والهدي الإسلامي الأول

حرصهم على التأسي والاقتداء بالهدي النبوي، كيف يتأسون بالنبي ﷺ؟

منهم من كان عالمًا يقرأ ويسمع ويتحدث ويحذر، ومنهم من لم يكن كذلك.

وكيف يشيع العلم فيهم وأكثر الناس أميون؟ كان سواد الأمَّة العوام، وقليل من الأمَّة الخواص الذين يقرؤون ويدرسون ويفهمون.

فكيف يكون سواد الأمَّة صالحًا والقراءة مقصورة على أفراد قليلين بالنسبة لسواد الأمَّة؟ من أين يتعلم هذا السواد الصلاح والتقوى والورع، وهم أميون عاميون؟

كانوا يتعلمونه من مجالس مشايخهم، فيذهبون إلى مجلس الشيخ فيتعلمون العلم سماعًا، ولا يفهمونه؛ لأن العلم في مستوى عالٍ، ولكن ينظرون إلى سمته وهديه ومشيه وحركته وسكونه فيتعلمون منه أكثر مما يتعلمون من قوله؛ لأن قوله أعلى من سمتهم العلمي وعقلهم الفكري، فكانوا يتعلمون من سمت العلماء.

إذن، ينبغي أن يكون سمت العالم مُعَلِّمًا: مَظْهَرًا نظيفًا، عمله، عبادته، سلوكه، قوله، تصرفه، تبسمه.

الأوزاعي رحمه الله تعالى، كان إمامًا.. لمَّا صار إمامًا كان يسأله بعض أصحابه السؤال فلا يضحك، فما وجدوا منه إلا التبسم. قالوا: نراك كنت تضحك والآن لا تضحك؟ قال: مذ صرنا أئمة لا يسعنا إلا التبسم.

ينبغي للإنسان في إمامته أن يكون ممثلًا لها رزينًا، حكيمًا حصيفًا عاقلًا معلِّمًا مؤدِّبًا، وهذه أخبار في سيرة الإمام أحمد ﷺ تبين لنا مثل هذا الذي ذكرت.

يَذكُر بعض أصحاب الإمام أحمد ﷺ، يقول: صاحبت الإمام أحمد اثنتي عشرة سنة، وما كنت أدرك من علمه شيئًا، ولكن كنت أنظر إلى هديه ودلِّه وسمته فأستفيد من ذلك.

يتعلم هكذا بالنظر إليه، لأن مجالس العلم كما قال الحسن البصري ﷺ: مجالس العلم مجالس الآخرة، يذكر فيها الحلال والحرام والندب والاستحباب والتحريم والإباحة وما إلى ذلك، فيعيش في الإنسان الشرع، فإذا عاش الشرع استراحت الأعضاء، أما إذا عاش الطمع وبيع الأراضي وشراء الأموال، والسمر والنخيل والسيارات، وما إلى ذلك: ذهب الورع وعاش الطمع، فأين يأتي العلم؟ والعلم عسر ما يأتي إلا على مكان نظيف لطيف رهيف محبب

رقيق، فإذا وجد طمعًا ما ألف ما يألف، لا يقبل العلم هذا الزيف.

فكان عندهم شيوع الصلاح والزهد والورع دائمًا والحرص الدائم على التأسي والاقتداء بالسمت والهدي الإسلامي دائمًا.

كذلك عندهم سبب آخر من أسباب النبوغ:
البعد عن الترف والرفاهية في الحياة:

كانوا يعيشون بالخشونة وهذا كان فيهم عادة، .

إذا قرأتم في ترجمة الإمام إبراهيم الحربي: زاره أحمد بن سلمان النجاد ـ أحد كبار أصحاب الإمام أحمد، فزاره ـ، فحدثه إبراهيم الحربي بما وقع له من ضائقات قبله، ثم قال لزائره: عندي فجلة، أكلت أخضرها بالأمس، وآكل بقيتها اليوم.

هذا غذاؤه، الإدام الذي عنده فجلة وليس خروف.

ابن الجوزي الذي تعرفون من علمه الكثير، كان في أول أمره يعيش على رغيف يابس يأخذه ويغمسه في ماء دجلة ليبتلعه ويزدرده ويلين على طعام، على الرغيف.

فكانوا من هذه الناحية بعيدين عن الترف، بعيدين عن الرفاهية؛ فلذلك يبقى قلبهم معلقًا بالله ﷻ، فلا تأخذ إليهم هيلمية العيش طريقها.

أما إذا أخذت العيش والرفاهية طريقها فبأي شي يفكر الإنسان: في ثلاجة أصغر، أو ثلاجة أكبر، وسرير أرفع، وفراش أنعم، وخزانة أضخم، وسيارة أفخم، وهكذا...

وأين العلم؟ العلم عند الله تعالى، كان هذا السبب ـ الذي بعد بهم عن الترف والرفاهية في الحياة ـ سببًا قويًا، ويمكن أن أذكر لكم بعض الوقائع من هذا.

السبب التاسع من أسباب نبوغ السلف:
تحري المال الحلال والكسب الطيب الطاهر

وهذا أمر له أثره الكبير في صلاح الإنسان وقبوله في الناس: تحري الحلال والكسب الطيب الطاهر.

تقول هذا لطلبة العلم! هم يعرفون الحلال والحرام.

نعم، إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

وأقول لنفسي قبل أن أقول لغيري؛ لأن الإنسان يتدنس ماله بكثير من تصرفاته، لا يسرق وينهب، ولكن يقصر ويتغافل ويغلبه حظ نفسه، فيكون مطعمه ملوثًا فضلًا عن السرقة والنهب والنشل وما إلى ذلك.

هذا أمر آخر بديهي، لا يقع من طالب العلم مباشرة، لكن ينبغي لطالب العلم أن يتحرَّى الحلال؛ لأن الإنسان إذا أكل الحلال أثمر الحلال، ونفع قوله في الأرض، ونفع قوله الناس وقبلوه، أما إذا أكل المشبوه! فإذا أراد أن يتكلم خرج كلامه وعليه قتامة الشبهة، أما إذا تكلم وكلامه من حلال خرج كلامه وعليه عسل القبول...

تجد واحدًا ما يدري يتكلم، ينزل كلامه عسلًا مصفًّى، وآخر متحذلقٌ متفيهق عنده ألوان من الخطابة والعلم وما إلى ذلك، تجد كلامه ما يمس الآذان فضلًا عن الجَنان، تسمعه، تقول له:

كلامك يا هذا كفارغ بندق   خليٌّ من المعنى ولكن يقرقع

ليس له روح. أما ذاك الذي أكل الحلال كلامه طيِّب؛ لأن سلوكه طيب، ولذلك قال السلف ﷺ: «إذا أكلت الحلال أطعت الله شئت أو أبيت، وإذا أكلت الحرام عصيت الله شئت أو أبيت».

«إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا».

فلذلك كانوا يتحرون الحلال، فإذا وجدوا شبهة كانوا أبعد الناس عنها، وتحري الحلال ينور القلب، ويفتح الذهن، يبصر البصيرة تلمع وتزدهر.

كيف يفهمون الحديث، ويفهمون ما لا نفهم، ونحن وإياهم أبناء بعض، كيف هذا؟

يفهمون لاستنارة بصائرهم، وقتامة بصائرنا، فإذا استنارت البصيرة انكشف للإنسان الفهم وزال عنه حجاب الغلظة، وكان عندهم هذا كثيرًا؛ لأنهم كانوا يتحرون الحلال في مطعمهم ومشربهم ومأكلهم؛ بل كانوا يتورعون الورع الشديد، وإذا قرأتم سيرة الإمام أحمد أو غيره من السلف الصالح، ترون العجب العجاب في هذا، هذا سبب.

السبب العاشر:
احتسابهم في طلب العلم وشعورهم الدائم: أن العلم عبادة وطاعة لا حرفة وبضاعة

يرون هذا العلم احتسابًا طاعة لله عبادة، فيتعلمون أنهم في عبادة، فيذكرون أنهم في عبادة، فلذلك يزدادون منه، ولا يرونه ضريبة عليهم لأخذ الوظيفة.

فكان الناس يعيشون على هذه الحياة يعني الخبز عندهم كثير، إذا كان هذا حال الإنسان فحينئذ عيشته تبقى عفيفة وراضية، ويمكن أن يكون آمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر؛ لأنه مهما تولى الأمر وتغير مهما كان ـ في بيت السلطان، وفي بيت غير السلطان ـ، يعيش على هذه المائدة، فيمكن أن يعيش بأمر بمعروف ونهي عن منكر. أما إذا كان بطنه هي المخدومة والمعظمة، فيخاف أن يهضم

طعامه أو يغير شرابه فلا يأمر بمعروف ولا ينهى عن المنكر.

فكان السلف عندهم الاجتزاء بالمعيشة الزاهدة، وكان الزهد عندهم هو أن يجد الشيء فلا يلتفت إليه ويعرض عنه عن غنى، أما إذا كان زهدًا عند الفقد والعدم، فهذا ليس بزهد، فكانت عندهم مثل هذه المقدمات موجودة على طبيعتهم وما كان عندهم هذا التوسع في الأطعمة ولا المساكن ولا العيش، ولا في أمور الحياة ورفاهيتهم، فكان عندهم أغلى شيء هو العلم.

عبد الرحمٰن بن أبي حاتم الرازي، ذهب من الري إلى مصر، فلما دخل مصر كان معه رفيق له في طلب العلم، ذهبوا يستمعون على الشيخ فاشتهوا سمكة، ولكنهم ما فرغوا ليلًا ولا نهارًا لشوائها، فبقيت ثلاثة أيام حتى كادت تنتن، فأكلوها نية، ما فرغوا لشوائها! لماذا ما فرغوا؟! هل كان هناك شرطة تلاحقهم ليلًا والنهار بحيث لم يفرغوا؟! في النهار يطوفون على المشايخ يسمعون، وفي الليل يكتبون ما كانوا يسمعون، فما كان عندهم فراغ من أنفسهم، ما كان عندهم فراغ.

فمثل هذا يحقق نبوغًا، أما إذا كان كما تعلمون، لا يمكن أن يحقق نبوغًا، ولا يمكن أن يحقق علمًا أو طلب علم بالمعنى القريب.

فإذا أردنا أن نتحدث عن هذه الأسباب، وقد أفضنا فيها غير قليل، فأريد أن أجتزئ بهذا القدر حتى لا أطيل عليكم، وقد قال سيدنا أبو بكر ﵁ كلمة من أطيب الكلمات في هذا المقام، يقول: «إذا وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضًا».

لا أحب أن أطيل عليكم حتى يكون منكم نشاط، وقد قالت عائشة الصديقة بنت الصديق ﵄ لعبيد بن عمير المكي قاص مكة (كان في مكة رجل من العباد الزهاد العلماء الصلحاء النبهاء النبغاء الفضلاء، عبيد بن عمير المكي، كان يجلس في حلقته عبد الله بن عمر ويبكي من حديثه، وكانت عائشة ﵂ تتسمع لحديثه)، قالت ﵂ لعبيد بن عمير: «إياك وإملال الناس وتقنيطهم».

يعني: هذا من أين جاءت به عائشة ﵂؟! جاءت به من كلام النبوَّة، وكل كلام لصحابي - من أهل العلم والفقهاء فيهم - مستخرج إمَّا من آية أو من حديث، يفقه ذلك من فقِهَه ويجهل ذلك من جَهله.

من أين هذا الكلام قالته عائشة ﵂، وقال أبوها سيدنا أبو بكر الصديق: «إذا وعظت فأوجز، فإن كَثير الكلام ينسي بعضه بعضًا»؟!

هذا تفسير مأخوذ ومستخرج من: أن النبيَّ ﷺ «**كان يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة علينا**»، هكذا يقول بعض الصحابة ﵃، يقول: «**كان رسول الله ﷺ يتخولنا**» يعني: حينًا وحينًا.

وإن شاء الله سيكون لنا جلسة بعد هذا نتم فيها الحديث في هذا الجانب، ونكتفي الآن بهذا القدر، ولعل بعض الإخوة لديه سؤال وجيز، يعني: بحيث لا يزيد الوقت طولًا فيكون دقائق معدودة، وننتهي إن شاء الله، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

* * *

۞ سؤال: كيف لنا أن نتغلب على هذه البيئة التي نعيش فيها، وعلى ما يحيط بنا من عراقيل ضد الإسلام، وجزاكم الله خيرًا؟!

ج الجواب:

أولًا: هذا ممكن وميسور وممكن تحققه، لماذا أقول هذا؟

لأنه في بعض الأحيان، من كثرة ما يرى الإنسان من مطر يصبح معه عقل كعقل الولد الصغير، أيام العيد إذا نزل المطر في أول النهار انقبض قلبه وظن أن العيد كله سيكون مطرًا، فيحرم من النزهة، فيصير العيد كله مطر؛ لأن أول العيد كان مطر، فبعض الناس يتفكرون ويظنون أن هذا المجال فاسد والفساد يزداد، ويمتد ويشتد، وما إلى ذلك، فيقولون: لا يمكن.

الجواب: أن الصلاح والخير ممكن وممكن أن يتحقق، ولولا ذلك لما كلَّفنا الله به أولًا، فكل ما كلفنا الله ﷻ ممكن؛ لأنه سبحانه لا يكلفنا ما لا يمكن، فكلفنا الله ذلك.

كيف نتغلب على هذا؟ التغلب على هذا ممكن، ننظر كيف تغلب الناس في السلف على الشر حتى ساد الخير، فننظر كيف تغلبوا؛ بلقاء الخير مع الخير، يصفو الذهن ويقوى الخير ويضمحل الشر. أنا لمَّا أصطحب رجلًا ألاحظه من بين إخوانه: أنزهَهم، أفضلَهم، أعقلَهم، أكملَهم، أحفظَهم لسانًا، أكثرهم اجتهادًا، فأصطفيه، وإذا اصطفيته لهذا لا بد أن يكون فيَّ ما يشابهه؛ لأن شبه الشيء منجذب إليه.

ويذكر الغزالي في «الإحياء»: أنه شُوهِد غراب وعصفور يطيران معًا، فاستغُرب هذا، فلمَّا وقعا على الأرض وُجد أن كلًّا منهما أعرج. فجمع بينهما العرج، فلا بد من جامع، لا بد من رابطة.

فإذن، أنا لمَّا أجد في نفسي الاجتهاد والجد والحب للخير فلا بد أن أجد لي مثيلًا فأصطفي هذا المثيل، هذا المثيل يتقوى بي ويكتمل، وأنا أتقوى به وأكتمل، فإذا بنا بعد قليل نصبح مصدر اكتمال لمن هو دوننا، فيأتي الأخ الصغير فيشهد بنا هذا، ثم يأتي الأخ الأصغر فيشهد في أخينا هكذا، وهكذا تنتقل القدوة بهذا

النموذج، أما لو بقيتُ وحدي فقد أكون قويًا اليوم، وغدًا قويًا، ولكن بعد غد فيبدأ يدبُّ فيَّ الضعف، وبعد بعد غد يكون أضعف وهكذا، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية.

فإذن، ينبغي للإنسان أن يكون له أليف أو حليف من الصالحين، يتخذه.. إن كان كبيرًا عنه في السن والمكانة والقدوة اتَّخَذَه شيخًا، وإن قرينًا اتخذه صاحبًا وخدينًا، وإن كان دونه اتخذه تلميذًا ومعلِّمًا، فيتعلم به أكثر مما يعلمه.. لأنك لمَّا تعلِّم الصغير الخُلُق يستدعي منك أن تتمثَّله أكثر مما تعلِّمه؛ لأنك لمَّا تعلِّمه النحو أو الإعراب ينبغي أن ينطبع فيك الإعراب النحوي قبل أن ينطبع فيه، ويكون فيك أوضح مما يكون أوضح فيه، فتتعلم النحو قبل أن تعلم النحو، فإذا أردت أن تكون متخلِّقًا، فتأخذ من الكبير قدوة وتلمذة، ومن القرين صحبة، ومن الصغير أستاذًا له ومعلمًا، فأنت في بحبوحة خير، إما معلمًا وإما متعلمًا، وإما شيخًا على صغير.. فإذن، يمكن أن يتغلب الإنسان على هذه طبعًا.

الأجر في هذا: التغلب للذي يتغلب ويفوز أكثر من الأجر الذي كان يفوز به ابن التابعي أو ابن ابن التابعي؛ لأن ذاك يجد على الخير أعوانًا ونحن لا نجد، نجد المغريات فنتخطاها، ذاك ما يجد المغريات، فالذي يجد المغريات ويتخطاها ويحصن الخير والعلم يبرز فيه ويتقدم فيه أفضل من ذاك من حيث الأجر، ولكن النبوغ لا بد أن يكون له أساليب أخرى لا تدخل في هذا الجواب.

سؤال: هل يمكن أن يعود المسلمون المعاصرون إلى ما كان عليه السلف الصالح، أفيدونا؟!

الجواب: طبعًا يمكن أن يعودوا إلى هذا، ولكن العودة نسبية، ودائمًا نحن نطلب أن يكون الكمال فينا، والكمال أمر

نسبي، لكن أن يعود كما كان أبو بكر وعمر؛ فهذا ليس من المستحيل في قدرة الله ﷻ، ولكن هو من المستحيل الواقع، لا المستحيل السماوي الاعتقادي، لماذا من المستحيل الواقعي؛ لأنه كما قال الشاعر ـ وبعض الأمثلة تغني عن الخطب والصفحات الطوال ـ:

إذا أبصرت في نظمي فتورًا ... ووهنًا في بياني للمعاني

فلا تنسب لنقصي، إن رقصي ... على مقدار تنشيط الزمانِ

وخير من هذا: أن رجلًا قال لسيدنا علي رضي الله عنه: «سِرْ فينا سيرة العُمَرَين» ـ يعني: أبا بكر وعمر، وهذا من باب التغليب ـ، قال سيدنا علي: «لما كان العُمَرَان كنت أنا من جنودهم، أما إذا كان جنودي من مثلك فكيف أسير بك سيرة العمرين».

فكيف يمكن أن نكون هكذا ونرجع إلى السلف؟ نرجع إلى السلف عندما يتخلص هذا المجتمع من الرعونات ونتغلب عليه، نرجع وليس بيننا وبين السلف حجاب، وليس هناك قدرة تمنعنا.

وقد قال ابن مالك النحوي رحمه الله تعالى في أول كتابه «التسهيل» كلمة تكتب بالذهب المصفى: «وإذا كانت العلوم منحٌ إلهية ومواهب اختصاصية، فغير مستبعد أن يُدَّخَر لبعض المتأخرين ما عسر على كثير من المتقدمين، نعوذ بالله من حسد يسد باب الإنصاف، ويصد عن جميل الأوصاف».

يمكن أن يوجد في المتأخرين نبغاء وصلحاء، وهذا موجود ولكن بالنسبة لأهل زمنهم.. ولكن إذا جئنا بصالح من صالحي هذا العصر وقرناه بصالح من صالحي التابعين لم يكن شيئًا؛ لأن صلاح السلف لا يُلحق، علم هؤلاء لا يدرك، فضل هؤلاء لا يعطى.

قال ابن حزم رحمه الله تعالى ـ وهو ظاهري، ولا يستخرج الأحكام استخراج الفقهاء من النصوص المركبة. . ما أريد من هذا ذمه أو مدحه ولكن أريد تشخيصه ـ، قال: «الصحابة ﷺ، **تَصَدُّقُ** أحدهم بتمرة أفضل من تَصَدُّقِ أحدِنا بكلِّ ما يملك، وعبادة أحدهم بركعتين أفضل مِن عبادتنا طول العمر». أتى بهذا من قول النبي ﷺ: «**لو أنفقَ أحُدكم مثلَ أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**».

هؤلاء سلف، فهم النموذج الحيّ الدائم، فنحن نقترب منهم، أما أن نكون مثلهم، فهذا يحتاج إلى بيئات مختلفة حتى تحضن هذا المعنى، وحتى ينبت هذا الشيء، يقول الرسول ﷺ: «**إن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يجدد لهذه الأمَّة دينها**» ـ يعني أمر دينها ـ.

قالوا: التجديد نسبي، فليس التجديد الذي يحصل في هذا القرن مثلًا مثل التجديد الذي كان في القرن الرابع، فرق كبير، إذا نظرت في أهل القرن الرابع وجدت من أهل العلم من يموجون موجًا في الحياة، وأما هنا فتبحث عن العالم فتجده أو لا تجده في البلدة، فيختلف الحال، ولكن يمكن أن يكون الإنسان عائدًا إلى السلف إذا التقى بأهل الخير وتعاون معهم ثم تيسرت لهم السبل، يمكن أن يعود إلى هذا وليس ببعيد، وإنما ميسر لمن يسره الله ﷻ عليه.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

صدر عن مكتب المطبوعات الإسلامية
المحققات والمؤلفات التالية للأستاذ عبد الفتّاح أبو غدّة
رحمه الله تعالى وتقبّل منه

١ ـ الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، للإمام اللكنوي، صدرت الطبعة العاشرة ١٤٣٧.

٢ ـ الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة، في علوم الحديث، للكنوي، الطبعة السادسة ١٤٣٧.

٣ ـ إقامة الحجة على أن الإكثار في التعبد ليس ببدعة، للإمام اللكنوي أيضاً، الطبعة الرابعة ١٤٣٥.

٤ ـ رسالة المسترشدين، في الأخلاق والتصوف النقي، للإمام الحارث بن أسد المحاسبي، الطبعة الرابعة عشرة ١٤٣٩.

٥ ـ التصريح بما تواتر في نزول المسيح، للإمام محمد أنور شاه الكشميري، الطبعة السادسة ١٤٢٦.

٦ ـ الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام، للفقيه المالكي الإمام شهاب الدِّين أبي العباس القَرَافي، الطبعة الرابعة منقحة ومصححة.

٧ ـ فتحُ بابِ العِنَايةِ بشرح كتابِ النُّقَاية، في الفقه الحنفي، للإمام علي القاري، الجزء الأول: كتاب الطهارة، الطبعة الثانية ببيروت ١٤٢٦.

٨ ـ المنار المنيف في الصحيح والضعيف، للإمام ابن قيم الجوزية، الطبعة الحادية عشرة ١٤٢٥.

٩ ـ المصنوع في معرفة الحديث الموضوع، للإمام علي القاري أيضاً، الطبعة السابعة ١٤٣٩.

١٠ ـ فقه أهل العراق وحديثهم، للإمام المحقق محمد زاهد الكوثري، الطبعة الثانية، وقد صدرت الطبعة الثالثة مضافة إلى مقدمة نصب الراية، الطبعة المحققة.

١١ ـ مسألة خلق القرآن وأثرها في صفوف الرواة والمحدثين وكتب الجرح والتعديل، بقلم الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدّة، وهو بحث جديد في بابه يهم كل محدِّث وناقد،

وقد أدرجت هذه الرسالة ضمن حاشية كتاب قواعد في علوم الحديث، وصدرت طبعتها المستقلة الثانية.

١٢ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ الخزرجي، خيرُ كتب الرجال المختصرة، بتقدمة واسعة وترجمةٍ لمحشِّيه، للأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الخامسة ١٤٢٩.

١٣ ـ صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، للأستاذ أبو غدَّة، أول وأجمل كتاب في موضوعه، الطبعة العاشرة.

١٤ ـ قواعد في علوم الحديث، للعلَّامة ظَفَر أحمد العثماني التهانوي، الطبعة الحادية عشرة ١٤٣٩.

١٥ ـ كلمات في كشف أباطيل وافتراءات، بقلم الأستاذ أبو غدَّة أيضاً، الطبعة الثانية، وهي رَدٌّ على أباطيل وافتراءات ناصر الألباني وصاحبه سابقاً زهير الشاويش ومؤازِرِيهما.

١٦ ـ قاعدة في الجرح والتعديل، وقاعدة في المؤرخين، لتاج الدِّين السبكي، الطبعة الثامنة ١٤٣٧.

١٧ ـ المتكلمون في الرجال، للحافظ المؤرخ محمد بن عبد الرحمن السخاوي، الطبعة السابعة ١٤٣٧.

١٨ ـ ذكرُ مَن يُعتمَدُ قوله في الجرح والتعديل، للحافظ المؤرخ الإمام الذهبي، الطبعة الثامنة ١٤٣٩.

وهي مطبوعة باسم أربع رسائل في علوم الحديث.

١٩ ـ العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، للأستاذ أبو غدَّة، أوَّل مؤلَّف في موضوعه، صدرت الطبعة الثامنة في بيروت ١٤٣٩.

٢٠ ـ قيمة الزمن عند العلماء، بقلم الأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الخامسة عشرة ١٤٣٣.

٢١ ـ قصيدة «عُنوانُ الحِكَم»، لأبي الفتح البُسْتي، بتعليق الأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الخامسة ١٤٢٧.

٢٢ ـ الموقظة في علم مصطلح الحديث، للحافظ الذهبي، الطبعة التاسعة ١٤٣٧.

٢٣ ـ لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث، بقلم الأستاذ عبد الفتَّاح أبو غدَّة، الطبعة الخامسة ١٤٢٩.

٢٤ ـ تراجمُ سِتَّةٍ من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر، بقلم الأستاذ أبو غدَّة.

٢٥ ـ الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، للحافظ ابن عبد البر، يصدر لأول مرة في طبعة محققة مقابلاً على ثلاث نسخ خطية، الطبعة الثانية.

٢٦ ـ سنن النسائي، اعتنى به ورقَّمه وصَنَع فهارسه الأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الخامسة ١٤٣٣.

٢٧ ـ الترقيم وعلاماته في اللغة العربية، لأحمد زكي باشا، الطبعة الخامسة ١٤٤٠.

٢٨ ـ سِبَاحة الفِكْر في الجهر بالذكر، للإمام اللكنوي، اعتنى به الأستاذ أبو غدَّة، الطبعة السادسة ١٤٢٦.

٢٩ ـ قفو الأثر في صفو علوم الأثر، لابن الحنبلي الحنفي الحلبي، اعتنى به الأستاذ أبو غدَّة. ومعه:

٣٠ ـ بُلغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب، للحافظ المرتضى الزبيدي، اعتنى به الأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الثانية منقحة.

٣١ ـ جواب الحافظ عبد العظيم المنذري عن أسئلة في الجرح والتعديل، اعتنى به الأستاذ أبو غدَّة. ومعه:

٣٢ ـ أُمراءُ المؤمنين في الحديث، رسالة لطيفة فيها مباحث هامة، تأليف الأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الثانية ١٤٢٦.

٣٣ ـ تحفة الأخيار بإحياء سنة سيد الأبرار صلَّى الله عليه وسلَّم، للإمام اللكنوي. ومعها:

٣٤ ـ نخبة الأنظار على تحفة الأخيار، للإمام محمد عبد الحي اللكنوي أيضاً.

٣٥ ـ التبيان لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن، للإمام المحقق الشيخ طاهر الجزائري، الطبعة الخامسة ١٤٣٣.

٣٦ ـ توجيه النظر إلى أصول الأثر، للإمام طاهر الجزائري أيضاً، حققه الأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الثانية منقحة.

٣٧ ـ الإسناد من الدِّين، رسالة تُبَيِّن فضل الإسناد وأهميته والعلوم التي يتعين فيها، للأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الثالثة ١٤٣٥. ومعها:

٣٨ ـ صفحة مشرقة من تاريخ سماع الحديث عند المحدثين، له أيضاً، الطبعة الثانية ١٤٣٥.

٣٩ ـ السنة النبوية وبيانُ مدلولها الشرعي، والتعريف بحال سنن الدارقطني، للأستاذ أبو غدَّة أيضاً ١٤١٢.

٤٠ ـ تحقيقُ اسمَيْ الصحيحين واسمِ جامع الترمذي، للأستاذ عبد الفتَّاح أبو غدَّة أيضاً ١٤١٤.

٤١ ـ منهج السلف في السؤال عن العلم وفي تعلم ما يقع وما لم يقع، له أيضاً، الطبعة الثانية ١٤٢٩.

٤٢ ـ من أدب الإسلام، رسالة توجيهية سلوكية تتصل بحياة المسلم أوثق اتِّصال، له أيضاً. صدرت الطبعة الأولى من القطع المعتاد، وصدرت الطبعة الحادية عشرة من القطع الصغير ١٤٤٠.

٤٣ ـ ظَفَر الأماني في شرح مختصر السيد الشريف الجُرجاني، للكنوي، من أوسع كتب المصطلح. ومعه:

٤٤ ـ أخطاء الدكتور تقيّ الدِّين النَّدْوي في تحقيق كتاب ظَفَر الأماني للكنوي، للأستاذ أبو غدَّة.

٤٥ ـ تصحيح الكتب وصُنعُ الفهارس المُعْجَمة وسبقُ المسلمين الإفرنجَ فيها، للعلَّامة أحمد شاكر. بعناية الأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الثالثة.

٤٦ ـ تحفة النُّسَّاك في فضل السواك، للعلَّامة الفقيه عبد الغني الغُنَيمي الميداني الدمشقي، الطبعة الثانية ١٤٣١.

٤٧ ـ كشف الالتباس عما أورده الإمام البخاري على بعض الناس، للعلَّامة الغُنَيمي أيضاً، الطبعة الثانية ١٤٣٠.

٤٨ ـ رسالة ابن أبي زيد القيرواني في العقيدة الإسلامية التي يُنشَّأُ عليها الصغار، بعناية الأستاذ عبد الفتَّاح أبو غدَّة، الطبعة الخامسة منقحة ١٤٣٥.

٤٩ ـ التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز، للعلَّامة المحدث الفقيه محمد زاهد الكوثري، ١٤١٣.

٥٠ ـ كتاب الكسب، للإمام محمد بن الحسن الشيباني بشرح الإمام شمس الأئمة السَّرَخْسي. بعناية الأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الثانية ١٤٢٦.

٥١ ـ الحث على التجارة والصناعة والعمل، للإمام أبي بكر أحمد بن محمد الخلّال الحنبلي ١٤١٥.

٥٢ ـ رسالة الحلالُ والحرامُ وبعضُ قواعدهما في المعاملات المالية، للشيخ ابن تيمية، الطبعة الثانية ١٤٢٥.

٥٣ ـ رسالة الأُلفة بين المسلمين، من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية. **ومعها**:

٥٤ ـ رسالة الإمامة، للإمام ابن حزم، في جواز الاقتداء بالمخالف في الفروع، الطبعة الثالثة ١٤٣٩.

٥٥ ـ رسالة الإمام أبي داود السجستاني لأهل مكة في وصف كتابه السنن. **ومعها**:

٥٦ ـ رسالة الحافظ الإمام أبي بكر الحازمي في شروط كتب الأئمة الخمسة. **ومعها**:

٥٧ ـ رسالة الحافظ محمد بن طاهر المقدسي في شروط كتب الأئمة الستة.

وهذه الرسائل مطبوعة باسم: ثلاث رسائل في علم مصطلح الحديث، الطبعة الثالثة ١٤٣٥.

٥٨ ـ الرسول المعلّم ﷺ وأساليبه في التعليم، للأستاذ أبو غدَّة، الطبعة الثامنة مصححة ومنقحة ١٤٣٧.

٥٩ ـ نماذج من رسائلِ الأئمة السلف وأدبهم العلمي وأخبارِهم في أدب الخلاف، له أيضاً، الطبعة الرابعة ١٤٤٠.

٦٠ ـ مكانة الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه في الحديث. كتابٌ نفيس للغاية فريدٌ في بابه، تأليف العلّامة المحدث الناقد الفقيه الشيخ محمد عبد الرشيد النعماني، الطبعة السادسة ١٤٤٠.

٦١ ـ الإمامُ ابن ماجه وكتابُه السنن. أولُ كتابٍ جامع في موضوعه، للعلّامة النعماني أيضاً ١٤١٩.

٦٢ ـ التحفة المرغوبة في أفضلية الدعاء بعد المكتوبة، للعلّامة المحدِّث الفقيه محمد هاشم التَّتَوِي السِّندي. **ومعها**:

٦٣ ـ المنح المطلوبة في استحباب رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة، للعلّامة المحدِّث الفقيه أحمد بن محمد بن الصديق الغُمَاري الحَسَني المغربي. **ومعها**:

٦٤ ـ سنية رفع اليدين في الدعاء بعد الصلوات المكتوبة، للعلّامة المحدِّث الفقيه السيد محمد الأهدل اليمني.

وهذه الرسائل مطبوعة باسم: ثلاث رسائل في استحباب الدعاء ورفع اليدين فيه بعد الصلوات المكتوبة، صدرت الطبعة الثانية منقحة ١٤٢٥.

٦٥ ـ خطبة الحاجة ليست سُنَّة في مستهل الكتب والمؤلَّفات كما يقول الشيخ الألباني، رسالة مبتكرة محرَّرة بقلم الشيخ عبد الفتَّاح أبو غدَّة، الطبعة الثانية ١٤٢٩.

٦٦ ـ مقدمة التمهيد، لابن عبد البرّ. بعناية الشيخ أبو غدَّة. **ومعها**:

٦٧ ـ رسالة في وصل البلاغات الأربعة في الموطأ، لابن الصلاح. **ومعها**:

٦٨ ـ ما لا يسع المحدِّث جهله، للميَّانشي. بعناية الشيخ أبو غدَّة. **ومعها**:

٦٩ ـ التسوية بين حدثنا وأخبرنا، للطحاوي. بعناية الشيخ أبو غدَّة. **ومعها**:

٧٠ ـ رسالة في جواز حذف قال في أثناء الإسناد، لابن بَنِّيس الفاسي.

وهذه الرسائل مطبوعة باسم: خمس رسائل في علوم الحديث، طبعة ١٤٢٣.

٧١ ـ لسان الميزان، للحافظ ابن حجر العسقلاني. طبعة محقَّقة ومفهرسة، بعناية الشيخ أبو غدَّة، الطبعة الثانية ١٤٣٧.

٧٢ ـ الأوائل السُّنْبُلية وذيلها، للعلَّامة المحدِّث محمد سعيد سنبل. بعناية الشيخ أبو غدَّة، الطبعة الثانية ١٤٣٥.

٧٣ ـ مبادىء علم الحديث؛ للعلَّامة المحدِّث الفقيه شبِّير أحمد العثماني، وهي «مقدِّمة» كتابه «فتح الملهم بشرح صحيح مسلم»، الطبعة الرابعة وقد تميَّزَت بالتحقيق والتعليق وحُسن الإخراج، بعناية الشيخ أبو غدة، الطبعة الخامسة مزيدة ومنقحة ١٤٤٠.

٧٤ ـ مختارات الشيخ عبد الفتاح أبو غدة الشعرية، وهو كتاب من نوادر أعمال الشيخ رحمه الله تعالى، قيَّدها في مطالعاته ومراجعاته الدائمة التي ما توقَّفت في عمره المديد المبارك، وهي مختارات ذات أهمية كبيرة وتقدِّم صورة أخرى للشيخ رحمه الله في ذوقه الأدبي. بعناية ولديه: الشيخ زاهد، والشيخ سلمان أبو غدة، ١٤٣٥.

٧٥ ـ أسباب النبوغ عند السلف (محاضرة قيمة للأستاذ الشيخ عبد الفتاح أبو غدة)؛ اعتنى بإخراجها سلمان أبو غدة، ١٤٤٠.

تُطلَبُ كتب الأستاذ عبد الفتّاح أبو غدّة من المكتبات التالية:

السعودية ـ الرياض: مكتبة الإمام الشافعي، مكتبة العُبَيْكان، مكتبة الرشد، المكتبة التدمرية، دار أطلس، مكتبات المؤيد، مكتبة الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مكتبة الكوثر. **مكة المكرمة**: المكتبة الإمدادية، المكتبة المكية، المكتبة الفيصلية، مكتبة الأسدي. **المدينة المنورة**: مكتبة العلوم والحكم، مكتبة الزمان. **جُدَّة**: دار الأندلس الخضراء، مكتبة المؤيد، مكتبة الشنقيطي. **الطائف**: مكتبة الصِّدِّيق. **أَبْها**: مكتبة الجَنُوب. **الإحساء**: مكتبة التعاون الثقافي، مكتبة المؤيد. **الخبر**: مكتبة المجتمع. **الدمام**: مكتبة المتنبي، دار ابن الجوزي. **الثقبة**: دار الهجرة. **عنيزة**: مكتبة الذهبي. **بريدة**: مكتبة أصداء المجتمع. **الكويت ـ الكويت**: مكتبة المنار الإسلامية، مكتبة ابن كثير. **الإمارات العربية المتحدة ـ دبي**: دار القلم. **أبو ظبي**: مكتبة الجامعة. **الأردن ـ عمان**: دار النفائس، دار الرازي. **مصر ـ القاهرة**: دار السلام، دار الغنَّاء. **المغرب ـ الرباط**: دار الأمان. **الدار البيضاء**: دار العلم. **العراق ـ بغداد**: دار إحياء التراث العربي. **لبنان ـ بيروت**: دار البشائر الإسلامية. وغيرها من المكتبات.

* * *